القواعد المنهجية والدلائل العقلية

للجواب على

من ينكر عذاب القبر ونعيمه بعقله

قرأه وقرظه فضيلة الشيخ

د. محمد بن سعيد بن موسى بن محضار العدني

جمعه وأعده

أسامة بن محمد بن قاسم الكلدي اليماني



القواعد المنهجية والدلائل العقلية

للجواب على

من ينكر عذاب القبر ونعيمه بعقله

قرأه وقرظه فضيلة الشيخ

د. محمد بن سعيد بن موسى بن محضار العدني

جمعه وأعده

أسامة بن محمد بن قاسم الكلدي اليماني



الطبعة الأولى

١٤٤٦ هـ - ٢٠٢٤ م

البريد الإلكتروني

Okalady38h@gmail.com

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

الحمد لله ربِّ العالَمين، والصَّلاة، والسَّلام على أشرفِ المُرسَلين، وعلى آله، وصحبه، ومَن تبِعَهُم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين.

وبعد:

فقد قرأتُ بحث أخي الكريم الشَّيخ المبارَك / أبي إسحاق أسامة بن محمَّد بن قاسم الكلدي اليماني – وفَّقه الله وسدَّده – الموسوم بـ " القواعد المنهجيَّة والدَّلائل العقليَّة للجواب على مَن يُنكِر عذاب القبر ونعيمه بعقله "، فألفيته بحثاً نافعاً، نفيساً في بابه، عزيزاً على طُلَّابِه، أجاد فيه مؤلِّفه، وأفاد، وبذل فيه جهداً مشكوراً، وأثرى كتابه بمسائل وتعليقات، وجوابٍ على شبهات عقليَّة أوردها أهل الباطل والزَّيغ، مِمَّن حكَّموا عقولهم في هذه الأبواب الغيبيَّة، والَّتي سبيل أهل الرُّسوخ في العلم والإيمان التَّسليم بها، والإذعان، والقبول، وحقَّق كاتب الرَّسالة المسألة، وجمع أطرافها، وعرَض شبهات المُبطِلين، وأجاب عليها بأسلوبٍ علميٍّ متينٍ رصين، سالِكاً سبيل أهل التَّحقيق والتَّدقيق، وعني بتوثيق النُّصوص وإحالتها إلى مصادرها الأصليَّة، ومَن قرأ رسالته علِم يقيناً الجُهد الكبير الَّذي بذله المؤلف – جزاه الله خيراً –، والمراجع الأصليَّة الأصيلة الَّتي كانت مادَّته في هذا البحث النَّفيس، وحريٌّ بهذا البحث أنْ يرى النُّور، ويُطبَع؛ ليستفِيدَ منه طُلَّابُ العلم والمعرفة، ويكون رافداً من روافد العلم والمعرفة.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّدٍ، وعلى آله، وصحبه، وسلَّم تسليماً كثيرا.

كتبه: د/ محمَّد بن سعيد بن موسى بن محضار

مدير مركز السُّنَّة للعلوم الشَّرعية/ اليمن/ محافظة إب/ مديريَّة الظِّهار

٢٧/ شوَّال/ ١٤٤٥هـ



تقريظ الشيخ الدكتور المبارك الحبيب المكرم

محمد بن سعيد بن موسى بن محضار العدني

-حفظه الله ورعاه، وبالتوفيق سدَّدَ خطاه-

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالَمين، والصلاة والسلام علىٰ أشرفِ المُرسَلين، وعلىٰ آله وصحبه، ومَن تبِعَهُم بإحسانٍ إلىٰ يوم الدِّين.

وبعد:

فقد قرأتُ بحث أخي الكريم الشَّيخ المبارَك/ أبي إسحاق أسامة بن محمد بن قاسم الكَلَدي اليماني -وفَّقه الله وسدَّده- الموسوم بـ **(القواعد المنهجيَّة والدَّلائل العقليَّة للجواب على من يُنكِر عذاب القبر ونعيمه بعقله)**، فألفيته بحثًا نافعًا، نفيسًا في بابه، عزيزاً علىٰ طُلَّابِه، أجاد فيه مؤلِّفه وأفاد، وبذل فيه جهداً مشكوراً، وأثرىٰ كتابه بمسائل وتعليقات، وجواب علىٰ شبهاتٍ عقليَّة أوردها أهل الباطل والزَّيغ، مِمَّن حكَّموا عقولهم في هذه الأبواب الغيبيَّة، والتي سبيل أهل الرسوخ في العلم والإيمان التَّسليم بها، والإذعان والقبول. وحقَّق كاتب الرِّسالة المسألة، وجمع أطرافها، وعرَض شبهات المُبطِلين، وأجاب عليها بأسلوب علميٍّ متينٍ رصين، سالِكًا سبيل أهل التَّحقيق والتَّدقيق، وعني بتوثيق النصوص وإحالتها إلىٰ مصادرها الأصلية، ومَن قرأ رسالته علم يقينًا الجُهد الكبير الذي بذله المؤلف - جزاه الله خيراً - والمراجع الأصليَّة الأصيلة التي كانت مادته في هذا البحث النفيس.

وحريٌّ بهذا البحث أن يرىٰ النُّور ويُطبَع، ليستفِيدَ منه طُلَّابُ العلم والـمعرفة، ويكون رافداً من روافد العلم والـمعرفة.

وصلَّىٰ الله وسلم علىٰ نبيِّنا محـمدٍ، وعلىٰ آله، وصحبه، وسلَّم تسليمـًا كثيراً.

كتبه د/ محـمد بن سعيد بن موسى بن محضار
مدير مركز السُّـنَّة للعلوم الشَّرعية
اليمن / محافظة إب / مديرية الظِّهار
٢٧ / شوَّال / ١٤٤٥هـ

ترغيب الشيخ محمد عالي وِلْد عَدُّوْد وتشجيعه على طبع ونشر البحث :

عندما راسلتُ شيخنا العلامة المبارك الحبيب محمد عالي وِلْد محمد يحيىٰ وِلْد عبد الودود (عَدُّوْد) الشنقيطي الموريتاني شيخ محظرة أم القرىٰ بموريتانيا [١] حفظه الله ورعاه ومَتَّعَنَا به، وعَرَضْتُ عليه بحث (القواعد المنهجية والدلائل العقلية للجواب علىٰ من ينكر عذاب القبر ونعيمه بعقله) بتاريخ ٢ شوال ١٤٤٤هـ - ٢٢ / ٤ / ٢٠٢٣م ؛ سألتُهُ :

- هل ترون حفظكم الله ورعاكم صلاحيةَ طبعِ ونشرِ هذا البحث ؟

- أجاب سلَّمه الله بقوله: " مُهِمٌّ ، جزاكم الله عَنَّا خيراً " .

---

(١) تقع محظرة أم القرىٰ في قرية باسمها تابعة لمقاطعة واد الناقة بولاية الترارزة شـرق العاصـمة نواكشوط علىٰ بُعد حوالي ٥٨ كم ، وقد تولىٰ مشيختها العلامة الفقيه اللغوي الموسـوعي الكبيـر شيخ شنقيط وشاعرها المتفنن محمد سالم بن محمد عالي بن عبد الـودود الهاشـمي المعـروف بـ (عَـدُّود) المتوفىٰ ٤ جمادىٰ الأولىٰ ١٤٣٠هـ ـ ٢٩ / ٤ / ٢٠٠٩م رَحِمَهُ اللَّهُ وأجزل مثوبته .



مقدمة



الحمد لله، وأُصلِّي وأُسلِّم علىٰ رسول الله، الـمُوحَىٰ إليه بالسُّـنَّة والقرآن من الله، مصَدِّقًا بـما بُـعِثَ به غير مكذِّبٍ أمورَ الغيب التي أخبر عنها بوحي من الله، وعلىٰ آله وأصحابه ومَنْ والاه، من كل مُتَّبِـعٍ بإحسانٍ منيبٍ أوَّاه.

وبعد؛ فالكلام في عذاب القبر ونعيمه وفتنة الناس في قبورهم مما لا مجال للعقل لإثباته، ولا يخضع للتجربة والبرهان لتأكيد وجوده، و(**عدم إدراك الحواس له لا يلزم منه عدم الوجود**)، لأن (**عدم العلم لا يدل علىٰ العدم**) كما هو معلوم، بل هو أمر وجودي يقيني، والعقل يتقبل وجوده كما تقبَّل غيره من الـموجودات غير الـمرئيات، ولكنه مُغَـيَّبٌ عنا لعدم قابليتنا له، وقد جعله الله من جملة الغيب الذي افترضه علىٰ عباده وامتحنهم بـالإيـمان به، وقدَّمه في الذكر فعَدَّهُ أول صفات الـمتقين كما في مفتتح سورة البقرة فقال: ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾ (البقرة: ١-٥) فبدأ بالإيـمان به لقيام الدِّينِ عليه، فإنه إذا تَحقَّقَ تَـحقَّـقَ الإيـمان، وإذا انتفىٰ انتَـفَىٰ الإيمان، قال عبد الله بن مسعود الهُذَلِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "ما آمن مؤمن أفضل من إيـمانٍ بغيبٍ، ثم قرأ: ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَ ...﴾ إلىٰ

قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾" رواه الحاكم النيسابوري في مستدركه (٣٠٣٣) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشَّيخين ولم يُخَرِّجاه، وأقرَّهُ الذهبي.

وقد ذكر الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ٦٧١هـ) في تفسيره (١) عن بعض المفسرين عند هذه الآية أَنَّ " الغيب كل ما أخبر به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **مما لا تهتدي إليه العقول** من أشراط الساعة، **وعذاب القبر**، والحشر والنشر، والصراط، والميزان، والجنة والنار " أهـ.

فتأمَّلْ قولهم: " **مما لا تهتدي إليه العقول** " وذكروا منها: **عذاب القبر**، فهو من جملة الغيوب التي لا يستطيع العقل إثباتها لأن مجاله الإدراكي في عالم الشهادة، أما عالم الغيب فلا سبيل له إليه إلا عن طريق الوحي، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٧٢٨هـ): " ونحن نعلم أنَّ الرسل لا يخبرون بمحالات العقول بل بمحارات العقول، فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاءه، بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته " (٢).

وَالنَّقْلُ جَاءَ بِمَا يَحَارُ العَقْلُ فِيـ ـــهِ لا بِالمُحَالِ البَيِّنِ البُطْلانِ

وعذاب القبر ونعيمه مما تَتَحَيَّرُ فيه العقول وتعجز عن إدراكه، ولكن وقوعه ليس مستحيلاً، فالعقل لا يحيط به من جهة العيان، ولكن يعرف خبره من طريق الدليل والبيان، ومن قواعد العلم: **(ليس كل معقول مُغيَّبٍ يكون قابلاً للإثبات**

---

(١) [الجامع لأحكام القرآن (١/ ١٦٣ - ١٦٤) ط / دار الحديث بمصر]

(٢) [درء تعارض العقل والنقل (١/ ١٤٧) ت - د. محمد رشاد سالم - ط / جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالسعودية]

بالحِسِّ والـمشاهدة)، كاستقبال الجَوَّال للـمكالـمـات عبر الأثير، فهل عدم مشاهدتنا كيفية ذلك يُلغِي حقيقة وجود الجَوَّال وعمله؟

إنَّ حقائق الغيب أعمق من أن يَسْبُرَها عقل محدود الزمان والـمكان، عاجز عن الإحاطة والإدراك، **وعجز الإدراك إدراك**، ومَنْ تكلف البحث فيها، والكشف عن حقائقها " فقد ظلم نفسه، وبخس من التوفيق حظه، ولم يحصل إلا علىٰ الجهل الـمركب، والخيال الفاسد في أكثر أمره " كما قال الإمام ابن قَـيِّم الجوزية (١).

وطالـما ثبت التنصيص علىٰ عذاب القبر ونعيمه - كما سيأتي إن شاء الله - فهو حق، وباب من أبواب الإيـمان بالغيب.

إنَّ سبيل الـمؤمنين هو الإيـمان بـالغيب كله، وهو فيصل التفرقة بين الـمؤمنين والكافرين، وعليه مدار الابتلاء، قال العلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت١٣٧٦هـ): " وليس الشأن في الإيـمان بالأشياء الـمشاهدة بالحس، فإنه لا يتميز بـها الـمسلم من الكافر، إنـما الشأن في الإيـمان بالغيب الذي لم نره ولم نشاهده، وإنـما نؤمن به لخبر الله وخبر رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فهذا الإيـمان الذي يُـمَيِّزُ به الـمسلم من الكافر، لأنه تصديق مجرد لله ورسله، فالـمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله، سواء شاهده أو لم يشاهده، وسواء فَهِمَهُ وعَقَلَهُ أو لم يهتدِ إليه عَقْلُهُ وفَهْمُهُ، بخلاف الزنادقة الـمكذبين بالأمور الغيبية، لأن عقولهم القاصرة الـمقصرة لم تـهتدِ إليها فكذبوا بـما لم يحيطوا بعلمه، ففسدت عقولهم، ومَرَجَتْ أحلامهم، وَزَكَتْ عقول الـمؤمنين الـمصدقين الـمهتدين بـهدىٰ الله " (٢)، وفي العقل صدق القائل:

---

(١) في [مفتاح دار السعادة (١/ ٢٨٢) ط / دار الكتب العلمية بلبنان]

(٢) [تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص ٢٩) ت - فواز بن سعد الصميل - ط / دار ابن الجوزي بالسعودية]

فَلَحَــــىٰ اللهُ الأُلَـــىٰ زَعَمُـــوا ... أَنَّـــكَ الْمَعْـــرُوفُ بِـــالنَّظَرِ
كَـــذَبُوا إِنَّ الَّـــذِي ذَكَـــرُوا ... خَـــارِجٌ عَـــنْ قُـــوَّةِ الْبَشَـــرِ

وقد روىٰ الإمام مسلم في صحيحه (٢٨٦٧) حديثًا بَيَّنَ فيه سبب تغييب عذاب القبر عن الناس، فعن زيد بن ثابت الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حائط (بستان) لبني النجار علىٰ بغلة له ونحن معه؛ إذ حادت به فكادت تُلقِيه، وإذا أَقْبُرٌ ستةٌ أو خمسةٌ أو أربعةٌ فقال: «مَنْ يَعْرِفُ أَصْحَابَ هَذِهِ الْأَقْبُرِ؟» فقال رجل: أنا، قال: «فَمَتَىٰ مَاتَ هَؤُلَاءِ؟» قال: ماتوا في الإشراك. فقال: «إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَىٰ فِي قُبُورِهَا، فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ»، ثم أقبل علينا بوجهه فقال: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ» قالوا: نعوذ بالله من عذاب النار، فقال: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر، قال: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ» قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، قال: «تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ» قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال.

فلو كشف الله للناس ما يجري في القبور لانتفىٰ الإيمان بالغيب، وزالت حكمة التكليف التي بها يكون الثواب والعقاب، ولَـدُهِشُوا !! وما استطاعوا دفن بعضهم بعضًا من هَوْل ما يرون، وفظاعة ما ينظرون !!! ولكن رحمةً منه بعباده، وعلمًا بضعف قواهم، وقصور إدراكهم؛ كان من حكمته أنْ حَجَبَ هذا الأمر عنهم في برزخ بين الدنيا والآخرة، وغَيَّبَهُ عليهم، وامتحنهم به فلا يرون ولا يسمعون منه شيئًا، كما أخرج البخاري (١٣٣٨) وأبو داود (٤٧٥١) عن أنس بن مالك الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يجري للكافر أو المنافق في قبره أنه قال: «...ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ

إِلَّا الثَّقَلَيْنِ»، ولو سمعوا لصُعِقوا حالاً لأنَّ قلوبـهم لا تطيق ذلك، فالثقلان - الإنس والجن - لا يسمعون ولا يرون شيئًا مما يحصل في عالـم البرزخ من عذاب أو نعيم، وبـهذا الامتحان يـميز الله الـمؤمنين الـمُثبِتِين من الكافرين الـمُنكِرِين، قال الحافظ ابن حجر العسقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٨٥٢هـ): " والظاهر أَنَّ الله تعالىٰ صَرَفَ أبصار العباد وأسماعهم عن مشاهدة ذلك وستره عنهم إبقاءً عليهم لئلَّا يتدافنوا، وليست للجوارح الدنيوية قدرة علىٰ إدراك أمور الـملكوت إلَّا مَنْ شاء الله " (١).

وبـهذا يُجاب علىٰ ذاك الطاعن العقلاني حينما سأل ساخراً: إذا كان الـميت يسمع ويتعذب في القبر؛ فلماذا لا يسمع عذاب أهل القبور إلا البهائم؟

نسأل الله أن يعيذنا من عذاب القبر، وعذاب النار، ومن الفتن ما ظهر وما بطن، وفتنة الـمسيح الدجال.

وإنه لـعَجَبٌ عاجبٌ استنكار عذاب القبر ونعيمه بالعقل !!! وكأن القائلين بذلك يحكمون علىٰ قدرة الله الـمطلقة بعدم الإمكان والتوقف بين دار الدنيا ودار الآخرة ! جاعِلِيْنَها محكومةً بالقوانين والسنن الكونية الدنيوية، ويتدخلون في قدرة الله بافتراض أسئلة هي بالهوىٰ أحـقُّ منها بالعقل، من مثل: لو كان كذا؛ لِـمَ لا يكون كذا؟! وكيف يكون هذا؟ فيسَـلِّطون عقولهم علىٰ النصوص الشرعية الـمتلقَّاة عن الله ورسوله فيما اصطلحوا عليه اليوم بـ (**عقلنة النصوص**)، ويَـلْـوُون دلالاتـها لِـيُنشِؤُوا بذلك معركة جديدة في غيرِ عَـدُوٍّ بين النص الشرعي الـمقدس لـعرضه علىٰ سيف العقل = (الهوىٰ)، داعين إلىٰ شعار جديد (**القراءة الحرة للنصوص**)

---

(١) [فتح الباري (٣ / ٢٣٥) بتعليقات الشيخ عبد العزيز بن باز - ط / دار الـمعرفة بلبنان]

مُـجدِّدين بذلك أيام أهل البدع وأقوالهم الشاذة، الذين قَـنَّنُوا: (**لا حجة لنص لا يقبله العقل، ولا يؤيده الحس !!**) إما أن يُـؤَوَّلَ بتحريفه، وإما أن يُنكَرَ بتجريفه ! وكم نُحِرَت نصوص إثر نصوص - تحريفًا وتجريفًا - بسيف العقل (الهوىٰ) هذا؟!

فليس ثَـمَّ إلا هوىٰ أو هدىٰ، قال الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ (القصص:٥٠) ولا حول ولا قوة إلا بالله.

نعم؛ لقد كان القول بعذاب القبر ونعيمه مستفيضـًا مشهوراً بين السلف الصالحين، ومحل إجماع بين الـمسلمين، إلىٰ أن نَجَمَتْ فتنة بدعة إنكار عذاب القبر عن بعض رؤوس الـمبتدعة في القرن الثاني الهجري، ولا زال دخانُـها الوَبِيءُ يفوح في أوساطنا، واستنشقه اليوم فئام من الناس، وقد تأثَّـروا بالفلسفة الـمادية الوضعية ومعاييرها النقدية، آخذين قاعدتـهم الـمخالفة للعقل والعلم والواقع بدون فكر ولا روية القائلة: (**كل معقول لا يؤيده محسوس فلا يؤخذ به**)، وهي من مفرزات ملاحدة الغرب، نشأت بعد ظلم الكنيسة هناك وتجاوزاتـها الدينية والدنيوية، بسبب ما ابتدعته من خصومة وعداوة بين الدين من جهة؛ والعقل والعلم من جهة أخرىٰ، ويتم الترويج لها اليوم ضمن موجة العولـمة الثقافية الغربية وتصديرها إلىٰ العالـم الإسلامي خاصة لإنتاج إسلام عقلاني علماني مدني ينادي أصحابه بحرية الرأي وضِـدِّهِ، وإمكانية الجمع بين الكفر والإسلام، ونِسْبِـيَّةِ الحقيقة وعدم احتكارها، واعتبار القرآن وكتب السُّـنَّة مصادر تراثية يجري عليها قلم النقد والنقض أسوة بغيرها (**لا للنصِّ الـمقدس**)، مُفَسِّـراً النصوص الدينية والظواهر

البشرية تفسيراً مادياً بحتاً (**القراءة الحرة للنصوص**)، ليجعلوا من أقوالهم نصوصاً مقدسة لا يبغي الناس عنها حِوَلاً، ولا يطلبون بعدها بدلاً.

وليس لمنكري عذاب القبر ونعيمه أن يضيقوا ذرعاً بربط ما هم فيه بما عليه الغرب المادي الملحد الداعي إلىٰ حصر العلوم والمعارف في الحس والمشاهدة، ولا قبول عنده للغيبيات التي لا تدخل تحت نطاق العقل كونها ساقطة من حسابه المادي، فالمذاهب الفلسفية يتسلسل بعضها عن بعض، وتجد القبول متىٰ ما كانت النفوس مُهيَّأةً لذلك، ومَنْ ظَنَّ مِنْ هؤلاء أنَّ ما عليه هو خلاصة تفكير عقلاني حُرٍّ ففي الوهم سقط، وفي مغالطة النفس وقع، فأفكار اليوم هي ترداد لأفكار الأمس، وعقائد وثنيي اليونان تُبعث من جديد، وتخرج للناس علىٰ أنها حقائق كشفتها البحوث والدراسات العلمية !! وها هم أولاء منكرو عذاب القبر ونعيمه يرثون نصيبهم منها فرضاً وتعصيباً، فبئس الإرث الموروث !!

نعم؛ لقد خاض بعض الناس في عقيدة فتنة القبر وعذابه ونعيمه، محاولاً إنكارها بشتىٰ الطرق، جاعلاً العقل تُكَأَةً يتكئ عليها للحكم عليها، كلما جاءه نَصٌّ من قرآن أو سُنَّة رَدَّهُما إلىٰ عقله (هواه)، فآيات القرآن الدالة علىٰ عذاب القبر يُؤَوِّلُها، ويُحَرِّفُ معانيها الظاهرة إلىٰ معانٍ بعيدة، وأما أحاديث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقول عنها: لم تدخل عقلي !!! فتارة يُكَذِّبُ ببعضها بحجة معارضتها للقرآن كما يفهم هو ضارباً فهم الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ والأمة من بعدهم لها عرض الحائط، وتارة يُضَعِّفُهَا بغير أسس علمية، وتارة يستدرك عليها باعتراضات عقلية وأسئلة تشكيكية لتتولد عنده بعدئذ شبهات لا خطام لها ولا زمام يتخذها ديناً ينافح عنه،

والتي يحاول أصحابـها التشويش بـها والرَّدَّ علىٰ مثبتي عذاب القبر ونعيمه، فـإذا مـا أُجِيبُوا عليها وسقطت شبهاتـهم؛ استحدث الـمنكرون شبهات جديـدة ورَمَـوْا بــها بين يدي الـمثبِتِين ليرُدُّوهم عمـا هـم عليـه، وليشـغلوهم عمـا هـم فيـه مـن الخيـر والدعوة، وإصلاح العباد والبلاد.

ومن الخطأ التشرُّفُ لكل شبهة يُـورِدُها القوم ومحاولة الإجابة عليها، فإن القلوب ضعيفة والشُّـبَهَ خَـطَّافَة، ومع كون هذا يشغل الأوقات بشبهات الـمنكرين التي لا تنتهي؛ فهو يدل علىٰ الفراغ بنوعيه: الفراغ العلمي، والفراغ الوقتـي من الانشغال بـما ينفع، ومن هنا تدخل الشبهات، ويجوس أصحابـها خلال الديار، ولله دَرُّ القائل:

لَقَـدْ هَـاجَ الفَـرَاغُ عَلَيْـهِ شُـغْلاً وَأَسْـبَابُ الـبَلآءِ مِـنَ الفَـرَاغِ

وإنَّ الحكمـة لتأبَـىٰ علينـا إلا أنْ ننشـغل بـمـعالي الأمـور، وإصـلاح الـنفس ومجاهدتـها وتزكيتها، وهداية الناس وتوجيههم إلىٰ ما يصـلِح معاشـهم ومعـادهم، فهذا من أعظم الجهاد اليوم، وليس هروبـًا من مواجهة شبهات الـمنكِرين والجـواب عليها، ولكن أوقاتنا أعـزُّ عندنا من أن تذهب مع الأوهام الحائرة، والظنون الخاسـرة التي لا تنتهي، وإدراكـًا منا بالـمكر الكُبَّارِ الذي يقف وراء نشر هـذه الشـبهات الآن، فقد أثارها مَنْ هو أجنبيٌّ عن علوم الشريعة وليس مـن ذوي الاختصـاص فيهـا، فهـو وإن كان عربيَّ اللسان والـمولد إلا أنه أجنبي الرضاع والـمقصد، مـا كـان لــهم أن يُظهِروها وينشروها إلا في حالِ فُـرقةٍ منـا، ونزاعـاتٍ وحـروبٍ مشـؤومةٍ، ومــجاعةٍ وإفقارٍ مُتَـعَمَّدٍ، وذُلٍّ وهوانٍ لا يخفىٰ، فكَـثُـرَ الأوصياء، وتـزاحم الـدخلاء، وتـآمر علينا القريب والبعيد، وتداعَىٰ الأَكَلَةُ علىٰ قصعتنا، يريدون صنع إسلام جديد يتوافق

والقيم الغربية الـمادية الإلحادية المغلولة في سجن الشهوات والشبهات، واصطلحوا علىٰ تسمية هذا الـمشروع بـ (**عَلْمَنَة الإسلام**) الـذي دعت إليه مؤسسة راند للأبحاث والتطوير أحد أهم الـمؤسسات الفكرية الـمؤثرة علىٰ صناعة القرار في الإدارة الأميركية، خاصة فيما يتعلق بـمنطقة الشرق الأوسط، وَتَوَلَّت كِبْرَ ذلك في دراسة بحثية صدرت عام ٢٠٠٧م في (٢١٧ص) بعنوان: (**بناء شبكات إسلامية معتدلة**)، والله المستعان.

وحيث إنَّ شبهات منكري عذاب القبر ونعيمه تتجدد بين الحين والآخر، وتنتشر عبر وسائل التواصل الاجتماعي، معتمدة علىٰ آلية فلسفية مادية تتظاهر بالعلمية ! وتَدَّعِي الـموضوعية !! وتُـتَـلِّـثُ بالعقلانية !!! مرتكزةً علىٰ تـهييج العقل ودغدغة العواطف وتحريك الوجدان، وعبر شَحْنٍ وضَخٍّ كَـمٍّ كبيرٍ من الشبهات ذات الـمعاني الـمُبهرجة والألفاظ الـمُمَوَّهَة، كقولهم: " عذاب القبر أكبر كذبة دمرت عقول الـمسلمين وجعلتهم يعيشون في خوف ورعب "و" ثِـقْ أنَّ الله رحمن رحيم، واعمل صالحـًا، وعِـشْ حياتك، ودَعْ عنك هرطقات كهنة الدين !! " و " لـماذا يصرون (أي مثبتي عذاب القبر) علىٰ تصوير الله علىٰ حُـبِّـهِ للتعذيب؟ لـماذا يصرون علىٰ إظهار الله بصورة مرعبة ولـمصلحة مَنْ؟ " و " هل الذي يجلس بثلاجة الـموتىٰ عشرات السنين يُعذَّب، ويدخل إليه الشجاع الأقرع، ومنكر ونكير إلىٰ الثلاجة؟ " و " فَـكِّـرْ في نفسك؛ هل من الـمعقول أنَّ ملاكـًا اسمه منكر أو نكير؟ " و " نكشف عن الـميت في قبره فلا نرىٰ آثار ضرب علىٰ جسده ! ولا ثعابين ولا تَنَانِيْنَ ولا ناراً تأجَّجُ !! "و" عذاب القبر ليس أساسيًا في عقيدة الشيوخ، لكنه وسيلة سياسية لا غنىٰ عنها لترهيب

العوام، والسيطرة عليهم بالحكايات والخيال والإرهاب النفسي !!! "و" ألا يكفي ما في الدنيا من البلاء والعذاب حتىٰ يعذب الله الناس في قبورهم؟ "

وهكذا في شُبَهٍ لا وجه فيها للعلم، ولا انْبَنَتْ علىٰ حجة، إنما هي محض انفعال نفسي، وعواطف جامحة لا تنتهي، يصنعها الهوىٰ، ويدفعها الجدل، وتسوقها الخصومة، تُقبِل بألفاظ طَنَّانةٍ، وتُدبِر تنزع في كل اتجاه، إمعانًا في التأثير النفسي، والإرهاب الفكري، وتتكاثر في أسئلة ذات عبارات لاذعة هازئة ساخرة غير مشروعة لا تليق بعظمة الله وقدرته والأدب معه سبحانه، صاغوها لتضغط علىٰ العقل لتضليله لا لتنويره، واغتياله تحت ذريعة إعماله، ويقف أمامها بعض إخواننا حائرين مضطربين بلا تمحيص ولا غربلة، تكاد تتلبَّسُ بهم وبها يتلبَّسون ، وربما دخل الشك إلىٰ بعضهم؛ فلمَّا كان الأمر كذلك؛ رَغِبْتُ في أن أجمع لهم **قواعد منهجية ودلائل عقلية** يعتمدونها للجواب علىٰ الشُّبَهِ المثارة لإنكار عذاب القبر ونعيمه وغيرها من القضايا المُثارة اليوم في عقائد المسلمين وأحكام دينهم، لتكون منهجًا راسخًا عامًا مُضْطَّرِدًا يُعرِّفهم كيفية الاستدلال بالنصوص وفهمها ومصدريتها، ومعرفة مواضع الخلل المنهجي في الاستدلال والتلقي، ولتنزهق بها شبهات المنكرين كلما برزت بقرونها، وتجددت بزخرف أقوالها، ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝٨١﴾ **(الإسراء: ٨١)**.

وهذه القواعد والدلائل ليست بدعًا من القول، وما هي بجديدة علىٰ العلم والعلماء، غير أنَّه تَمَّ لَمُّ شتاتها، وجمع مُتَفَرِّقِها، والتأليف بينها هنا لتكون قبلة يرجع إليها الذين أضاعوها وذهبوا يطلبون الحق عند مَنْ أضاع الحق، فانتظم عِقْدُها هنا لتصحيح فَهْمِهِم للأدلة، وتحديد الآلية العلمية المعتمدة لتفسير النص

الشرعي ومعرفة مراد مُنَزِّلِهِ سبحانه، وإلا صار كَلأً مستباحًا لأهل الأهواء، ومقاولي هدم النصوص، ودعاة التمرد على الأصول!! فضَبْطُها والاهتداء بها اتباع، وإهمالها والتنكُّب عنها ابتداع.

وهي أيضًا ذكرى وهُدىً لمن بَعُدَ عهده بما كان عليه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، والذكرى تنفع المؤمنين، والهداية مطلب الصادقين، وأما مَنِ استكبر وأخذته أَنَفَة الجهل، وجَمَحَ بالإعراض أو الاعتراض، واستغنى بظنه وما تهواه نفسه فالله غنيٌّ عنه، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ (العنكبوت: ٦).

ثم ختمت هذه القواعد والدلائل بذكر فَصْلَيْنِ مُهِمَّيْنِ بهما يكمُلُ البحث:

الأول: تواتر الأحاديث في عذاب القبر ونعيمه.

والثاني: نقل الإجماع على عذاب القبر ونعيمه.

فيا رب يَسِّرْ وأَعِنْ واهْدِ وَوَفِّقْ وبارِكْ يا ذا الجلال والإكرام.







أولاً - القواعد المنهجية:

۞ القاعدة الأولىٰ:

أحكام الشريعة لا تثبت بقبول العقل لها، ولا تُـنفَىٰ بِـرَدِّ العقل لها، إذ عقول البشر متفاوتة من حيث الإدراك والتصور والفهم والحكم، وليس بغريبٍ بَعْدُ أن يختلف العقلاء ويتباينوا في أديانـهم وأمور دنياهم، فقضايا العقل متناقضة، وما تناقضت قضاياه فلا يصلح دليلاً لشيء، فضلاً عن أن يكون سبباً مُثبِتاً، ولا يستطيع أن يعلم كل شيء، بل لا يزال عاجزاً عن إدراك أشياء كثيرة في الكون والحياة، فحقائق الكون ليس له منها إلا الظاهر، وكم من مخلوقات لها أسرار خفية لم يصل إدراكه إلىٰ معرفة كنهها وجوهرها؟ بل الروح التي يعيش بـها يقف أمامها معترفاً بفشله في تحديد حقيقتها ولن يعرف، بل العقل ما زال عاجزاً عن إدراك حقيقة نفسه بنفسه !! وأين يوجد؟ وكيف يعمل ويؤدي وظائفه؟ وللناس في هذا مذاهب وأقوال شتىٰ امتلأت بـها أوراق الدفاتر وصفحات الكتب. ولذا؛ لم يكن العقل حجة متـفقاً عليها يوماً من الأيام، ولا يوجد تعريف للعقل مجمع عليه بين العلماء، وليس عقلي حجة عليك، ولا عقلك حجة علىٰ أحد، ولا عقل الجماعة الفلانية حجة علىٰ الناس، ولو كان كذلك لَـمَا اختلفوا، ولهذا يتوجب علىٰ كل مَنْ دعا إلىٰ تحكيم العقل أن يحدد ما الـمقصود بالعقل الذي يدعو إليه؟

ولو قيل: لِيَخْتَرِ الناس من بينهم أعقل العقول وأكملها، ويجعلوه الحكم بينهم؛ لخرج مَن ينازع بعقله صاحبَ أعقل العقول ليعقله بعقله قائلاً له: أنا أحق بالعقل منك !! بل لو اختلف اثنان من دعاة التحاكم إلىٰ العقل في مسألة لخرجوا منها بثلاثة أقوال، وربما برابع !!! بل الشخص الواحد منهم يقطع بصحة قولٍ تارة، وبفساده تارة أخرىٰ، والذي صَحَّحَ وأَفْسَدَ واحد: العقل ! فـ " يا ليت شعري ! بأي عقل يُوزن الكتاب والسُّنَّة، فرضي الله عن الإمام مالك بن أنس حيث قال: (أَوَ كلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما جاء به جبريل إلىٰ محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لجدل هؤلاء؟) " [(١)]، ومع لحن قولهم، وزخرف منطقهم؛ سيبقىٰ دعاة التحاكم إلىٰ العقل مُشَرِّقين ومُغرِّبين، ولن يبرحوا متنازعين متفرقين، فهكذا كانوا، ولا زالوا، ولن يزالوا.

ومع جموح القول بمركزية العقل وحاكميته علىٰ كل شيء حتىٰ صار طاغوتًا؛ كما قال أحدهم: " ثَبِّتُوا العقل في كُرسِيِّه بإحكام، وادعوا إلىٰ محكمته كل حقيقة وكل رأي، وناقشوا كل شيء بجرأة حتىٰ وجود الربِّ !! لأنه إذا كان الربُّ موجوداً؛ فلا بُدَّ أنه سيوافق علىٰ إجلال العقل، وليس الخوف معصوب العينين " [(٢)]؛ صرنا نرىٰ ونسمع ما لا تقبله العقول الرجيحة، ولا تُقِرُّه الفِطَرُ الصحيحة، ولا ترضاه الأذواق المليحة، وانتقل الناس من دليل العقل إلىٰ دليل السمع والبصر، إلىٰ دليل

---

(١) [أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات (ص ٢٣٥) لمرعي بن يوسف الكرمي المقدسي – ت / شعيب الأرناؤوط – ط / مؤسسة الرسالة بلبنان]

(٢) كما في [هجوم علىٰ العقل (ص ٧٦) – آل جور / ترجمة د. نشوىٰ ماهر كرم الله – ط / مكتبة العبيكان بالسعودية – والقول منقول عن توماس جيفرسون]

البطن، إلىٰ دليل الشهوة !! ثـم ختموها بدليل جينات الشذوذ الـمزعومة !!! أليس في أوروبا وأمريكا مَنْ يبيح الشذوذ بنوعيه، والـمزدوج، والإجهاض، وما يسمىٰ بـ (البيـبـي بوكس – صندوق الطفل الـمُتَخَلّىٰ عنه) وحرية التصرف في جسد الـمرأة تحت شعار (جسدي مُلكي!) بقوانين تَـمَّ التصويت علىٰ إقرارها من أعقل عقلائهم!! وعِلية مفكريهم !! ومباركة رهبانـهم وقساوسة كنائسهم؟! وكل هذا ابتنىٰ عندهم علىٰ ما يسمونه بالحق الطبيعي للإنسان الذي كانت بدايته قائمة علىٰ إقصاء الوحي الإلهي، وجَعْلِ العقلَ الحاكمَ البديلَ !!

ولذا؛ لن تجد مصاباً بداء العقلانية (الهوىٰ) يوجه سهام النقد والإنكار علىٰ هؤلاء، بل يحترم خبالات عقولهم، وزبالات أفكارهم، وسفالات أخلاقهم ولو علىٰ حساب عقول شعوب الأرض وفِطرتـهم وأديانـهم كلهم، بل علىٰ حساب عقله وفطرته ودينه نفسه! وعند مسألة عذاب القبر لا يحترم نصـاً قرآنيـاً، ولا حديثـاً نبويـاً، ولا عقول الأمة الإسلامية التي آمنت بـهذا الأمر وأجمعت عليه، وجعلته من صميم عقيدتـها، وصُلْب دينها، وذهب يتهم علماء الأمة قراء ومحدثين وفقهاء من الصحابة والتابعين وتابعيهم بأنـهم كانوا يؤمنون بخرافة عذاب القبر !! أليس هذا إيذاءً لهم؟ واستخفافـاً بعقولهم؟ ومصادرة لحقوقهم؟ وطعنـاً في إيـمانـهم؟ وافتراءً عليهم أنـهم يكذبون علىٰ الله ورسوله؟ فمَنْ أَبْـهَـتُ مِـمَّنْ زعم هذا ودعا إليه وقال: احذروا فرية عذاب القبر، ولا تكونوا بـها مُصَدِّقين؟!!

سؤال: هل يوجد شيء في الوجود اسمه (عقل) بحيث يكون مرجعـاً مطلقـاً منزوعـاً من أي قيد أو تأثـر؟

الجواب بالعقل: لا وجود لهذا الـمخلوق !!!

إنَّ القول بـموثوقية العقل فيما يأتي ويذر مطلقـًا سيجعلنا أمام إشكالية كبيرة جداً، أمام عقولٍ متبايـنةٍ أشدَّ التباين، عقول أفراد وأشخاص، وعقول هيئات ومؤسسات، وعقول دول وحكومات، فَـبِـعَـقْلِ مَنْ توزن نصوص الكتاب والسُّـنة الـمقدسات؟ وهل ستبقىٰ للناس بعد العقل حاجة إلىٰ الأنبياء والرسالات؟!

۞ القاعدة الثانية:

لا يوجد دليل قرآني واحد يجعل العقل مصدراً للتشريع، فيقبل ما شاء، ويرد ما شاء، ويحرم ويحلل، ويقرر كمُشَـرِّعٍ الحقَّ من الباطل، هذا لا يقول به إلا مَنْ غلا في تقديس العقل وجعله موازيـًا للقرآن وفي مستواه، متأثراً بـمعايير الفلسفة اليونانية فيما يُـعَـدُّ عقلانيـًا، فتراهم يقولون: القرآن والعقل، فيغترُّ البعض بـهذا الكلام ويظنونه حقـًا، ولكن الناقد البصير يَتَكَشَّفُ له أن وراء هذه الدعوىٰ تكذيبـًا بـما جاء به الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإلحاداً في آيات الله عَزَّوَجَلَّ، علاوة علىٰ أنَّ الـمقصود بالعقل عقولهم هم لا عقول البشر الآخرين.

حسنـًا، إنْ كانت الـمسألة ترجع إلىٰ العقل؛ أفلا يحق للآخرين أن يخالفوا عقولكم؟ ويـفهموا الأمور بعقولهم الـحرة خلاف ما فهمتم؟

إنَّ عقلاء الـمسلمين ومعهم الحكماء والعلماء في كل زمان ومكان يخالفونكم في أمر عذاب القبر، ويجعلون إثباته مـما يُـجَوِّزُهُ العقل، قال إمام الحرمين في زمانه أبو الـمعالي الجويني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٤٧٨هـ): " كل ما جَـوَّزَهُ العقل وَوَرَدَ به الشرع وجب القضاء بثبوته، فمِمَّا ورد الشرع به: عذاب القبر، وسؤال منكر ونكير، وَرَدُّ

الروح إلىٰ الـميت في قبره... " (١) إلـخ ما قال من الغيوب التي لا يـمكن أن يعرف العقل خبرها إلا بالوحي.

ثم إنَّ الآيات التي يستدلون بـها علىٰ قيمة العقل وأهميته إنـما ذَكَـرَتْـهُ ليقوم بدوره الطبيعي في فهم مراد الله ورسوله، واستـثارته للتأمل والتفكر والتفقه والتذكر في آيات الله الكونية والشرعية ليهتدي إلىٰ معرفة الأسباب ومسبباتـها، ولِـيَعِيَ الترابط العام بين الكون والشرع ضمن منهجية علمية معروفة يسير عليها في ذلك، فمن ذلك أَمْرُ الله الناسَ بأن يتفكروا بعقولهم في آيات كتابه التنزيلية كقوله: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ (ص : ٢٩)، ومن ذلك أمره بالتفكر في خلق السماوات والأرض وما بينهما، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠﴾ (آل عمران : ١٩٠)، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٨٠﴾ (الـمؤمنون : ٨٠)، وقوله في خلق الإنسان: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ (الذاريات : ٢١)، وقوله عَـزَّ أمره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ٩٨﴾ (الأنعام : ٩٨)، وذَمَّ الذين غفلوا عن التفكر في آياته الكونية الدالة علىٰ وحدانيته واستحقاقه للعبادة فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ ١٠٥﴾ (يوسف : ١٠٥)، وضرب الأمثال ليعقلها من الناس العالِـمُون فقال جَلَّ أمره: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ٤٣﴾ (العنكبوت : ٤٣)، وقـال سبحانـه:

---

(١) [لـمع الأدلة (ص ١٢٦ – ١٢٧) ت – فوقية حسين محمود – ط / عالـم الكتب بلبنان]

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (الزمر: ٢٧)، وقال عَزَّ أمره حاثًا علىٰ معرفة الحكمة من تشريع القصاص: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ (البقرة: ١٧٩)، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ داعيًا لإعمال العقول للاستنباط: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ (النساء: ٨٣)، بل أيقظ العقول لتَتَّعِظَ بقصص الأمم السابقة وما حَلَّ بها من العقوبات الإلهية، وتأخذ العِبَرَ منها فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ (يوسف: ١٠٩)، وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (يوسف: ١١١) وقال عَظُمَ أمره: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ (الحجر: ٧٥)، وقال آمراً بذلك: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ (النمل: ٦٩)، ودعا إلىٰ إعمال ما أودعه في عقولهم من القواعد العقلية الثابتة مثل التسوية بين المتماثلات، والتفريق بين المختلفات فقال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الجاثية: ٢١)، وقال: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (القلم: ٣٥-٣٦)، وذَمَّ ربنا جَلَّ أمره أولئك الذين عَطَّلُوا عقولهم حين أعرضوا عن آياته القرآنية والكونية والتاريخية فقال عن القرآن: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ (يونس: ٤٢)، وقال في آياته الكونية: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ (يونس: ١٠٠-١٠١)،

وقال سبحانه بعد إهلاكه القرىٰ الظالـمة وما حَلَّ بأهلها: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾ (الحج:٤٦)

وهكذا في آيات كثيرة؛ نجد أنَّ الـمطلوب من العقل هو إعمال الفكر والنظر في آيات الله الشرعية والكونية وما تدل عليه ونُصِبَت وشُرِعَت له، ودراستها، والاستنباط منها، والقياس عليها، فهو وسيلة لاكتشاف الحقائق والحِكَمِ والـمقاصد والعلل وإدراكها وتفسيرها وتحليلها، لا أَنَّه مصدرٌ لـها ومشرِّعٌ لها، فليس له - مثلاً - تحريم أكل لحم الخنزير، ولا إيجاب أربع ركعات لصلاة الظهر وثلاث للـمغرب، ولا منع الـمرأة من الصلاة والصيام حال حيضها، ولا منع الجمع في الزواج بين الـمرأة وعمتها، والـمرأة وخالتها، ولا التفريق بين الزاني الـمحصن وغير الـمحصن في العقوبة، ولا إثبات وجود الجن والـملائكة وما هم فيه من عوالم غيبية، ولا كيفية حصول الوسوسة من الجن، ولا الإلهام كيف يتم من الـملائكة؟ (١) وليس يُضِيْرُهُ عجزه عن الإحاطة بـها، وعن تأثيرها علىٰ الإنسان، فهو - أي العقل - كالسمع والبصر له مجال محدود، قال الإمام الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ٧٩٠هـ): " اعلم أنَّ الله جعل للعقول في إدراكها حداً تنتهي إليه لا تتعداه، ولم يجعل لها سبيلاً إلىٰ الإدراك في كل مطلوب، ولو كانت كذلك لاستوت مع الباري تعالىٰ في إدراك جميع ما كان وما يكون وما لا يكون " (٢).

---

(١) انظر [الإحكام في أصول الأحكام (١/ ٢٨) لابن حزم - ت أحمد مــحمد شـاكر - ط / دار الآفاق الجديدة بلبنان]

(٢) [الاعتصام (٣/ ٢٨٢) ت - د. هشام بن إسماعيل الصيني - ط / دار ابن الجوزي بالسعودية]

وهذا يجعلنا نفهم لـماذا عجز عقل ابن آدم الأول وقد قتل أخاه عن فعل ما يناسب تجاه هذه الجريـمة النكراء؟! فكان أن بعث الله إليه غرابًا يعلمه ويهديه كيف يواري جثة أخيه الـمقتول؟ فالإنسان بدون الوحي الإلهي سَيَتِيْهُ ويتخبط في الظلمات والضلالات، وليس بوسع عقله إلا تَقَبُّل ما يأتيه سامعًا مطيعًا، قال الإمام الشاطبي: " الأدلة العقلية إذا استعملت في هذا العلم؛ فإنـما تستعمل مركبة علىٰ الأدلة السمعية، أو مُعِينة في طريقها، أو محققة لـمناطها، أو ما أشبه ذلك، لا مستقلة بالدلالة، لأن النظر فيها نظر في أمر شرعي، والعقل ليس بشارع " (١).

وقد دَلَّت الآيات السابقات علىٰ أنَّ الله أقام الحجة علىٰ الناس بـما رَكَّبَ فيهم من العقول، وأنزل إليهم من السمع، وأسعدُ الناس حياةً مَنْ جمع بينهما معتمداً منهجية: **لا عقل مهتد إلا بالنقل، ولا نقل مفهوم إلا بالعقل.**

ويكون الدِّين بذلك قد رسم للعقل الـمنهج الصحيح للنظر العقلي، والذي كان من ثـمراته أنْ حَـرَّرَ العقل من الخضوع لسلطان الأحبار والرهبان، ومن العصبيات الاجتماعية والسياسية، ومن التقليد الأعمىٰ للآباء والأجداد، ومن الركون إلىٰ أيِّ شيءٍ بغير علمٍ ولا هدىً ولا كتابٍ منيرٍ، وجَعَلَهُ متساوقًا مع الحياة والوجود.

ويتلخص لنا بعد هذا كله منهجان في كيفية التعامل مع العقل:

الـمنهج الأول: منهج عرف أصحابه للعقل إمكاناته وطاقاته النسبية من جانب؛ وعرفوا أيضًا مطلب الشرع من العقل، والوظيفة التي ناطه بـها من جانب آخر.

---

(١) [الـموافقات (١/ ٢٧) – ت مشهور بن حسن آل سلمان – ط/ دار ابن عفان بـمصر]

الـمنهج الثاني: منهج مَنْ أطلق للعقل العنان، فلم يعترفوا بـمحدودية إمكاناته وطاقاته؛ ونسبية معرفته، بل قالوا: سلطان العقل مطلق، وهو قادر علىٰ أن يُـخـضِعَ كُلَّ شيء لسلطانه ما ظهر له وما خفي عنه، ما أدركته الحواس وما غاب عنها، حتىٰ ما أخبرت عنه الأنبياء عن عالم الغيب وقضاياه يجب أن يخضع العلم به وبكيفيته لسلطان العقل، ولم يفرق أصحاب هذا الـمنهج بين مطلب الشرع من العقل في عالم الشهادة؛ ومطلبه من العقل في عالم الغيب (١).

إنَّنا نجد العقل في الـمنهج الأول يعمل في عالم الشهادة بأدوات يتعرف من خلالها علىٰ ما يوجد في الكون من عوالم وقوانين فيفهم ويعلل ويستنبط ويقيس، أما مع عالم الغيب فهو متعلِّمٌ متلقِّنٌ يأخذ الـعلم من عالِـمِ الغيب سبحانه.

أما في الـمنهج الثاني فالعقل إذا جاءه شيء من عالَـمِ الغيب؛ جعل يحاكمه إلىٰ عالم الشهادة، ويُصِـرُّ علىٰ أن يفهمه بقوانين وسنن عالم الشهادة مستخدمًا الظن والتوهم والتخيل للوصول إلىٰ الـمعرفة، وكلها لا تُجدي من العلم شيئًا، ولا تغني في مجال الإيـمان شيئًا، ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ٢٨﴾ (النجم:٢٨).

وهل يجوز أن يُحَكَّمَ العقل في غـيـبـيات الشرع؟! هنا تجيء في هذا وأمثاله قاعدة: (**الغيب لا يُسأل عنه بـــ كيف؟**)

والآن؛ أيُّ الـمنهجين أعدل منهجًا، وأكثر احترامًا للعقل وأعرف بحقيقته؟ (٢).

---

(١) انظر [الوحي والإنسان قراءة معرفية (ص ٨٦) أ.د. محمد السيد الجليند – ط / دار قباء بـمصر]

(٢) انظر [الـمصدر السابق (ص ٨٧)]

وخلاصة القول في العقل: هو آلة لفهم الأشياء والتمييز بينها، وليس مصدراً للمعرفة؛ فهذا طرفُ إفراطٍ، وليس مهمَلاً لا قيمة لدوره في الحياة والوجود؛ فهذا طرفُ تفريطٍ، وكلا طرفي الأمر ذميم.

۞ القاعدة الثالثة:

لو تُرِكَ أمر إثبات الشرائع والأحكام أو نفيها للعقل وحده لَـمَا احتاج الناس إلىٰ إنزال الكتب وإرسال الرسل وتشريع الشرائع، ولحصل الخلاف بين الناس، ولاضطربت أمورهم، وتفرقوا في دينهم شَذَرَ مَذَرَ، وهذا الذي حصل تـماماً من يوم سُلِّطَ سيف العقل (الهوىٰ) علىٰ نصوص الشرع، فكثُـرَت البدع والأهواء، وتفرق أهلها شيعاً وأحزاباً، وما موضوع إنكار عذاب القبر ونعيمه إلا مثال صارخ دَالٌّ علىٰ ذلك، فَتَرَىٰ مُقَدِّسِي العقل (الهوىٰ) الغالين فيه، الـمُقَدِّمِـينَهُ علىٰ كل شيء يُؤَوِّلون آيات القرآن الواردة فيه، ويحرفون معانيها الواضحة لأنَّ عقولهم لم تَـسْـتَسِغْها وتقبلها !! ويلتمسون الآيات التي يظنونـها تتناسب والـمعنىٰ الـمراد في عقولهم!

وأما السُّنَّة فذهبوا لإنكارها أو تحريف معانيها لأنَّ أحاديثها لم تدخل عقولهم، وابتدعوا قوانين لمحاكمتها، ففرقوا بين ما تواتر منها وما نقل بالآحاد، فما كان في العقائد فلا يؤخذ بحديث الآحاد فيها إلا أن يتواتر، من غير أن يأتوا بدليل قرآني أو نبوي أو حتىٰ عقلي مقبول يثبت هذا التفريق !! ثم يخاطبونك: العقل !! العقل !! ليعطلوا عقولنا لعقولهم، فلا نفهم إلا ما فهموا، ولا نقبل إلا ما قبلوا، وكأننا بلا عقول !!! ولا يُـمكن قبول ما قالوا إلا إذا قلنا: إنَّ الجنون خير من العقل، والعجمة أفصح من البيان، والفوضىٰ أحسن من النظام، وما نحن بقائلين من ذلك من شيء،

فَـلْـيَـرْبَـعُوا علىٰ أنفسهم من الشطط، وليعقلوا عقولهم عن الخصومة واللغط، قال الإمام أبو الـمظفر السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٤٨٩هـ): " واعلم أنَّ فصل ما بيننا وبين الـمبتدعة هو مسألة العقل، فإنـهم أسَّسُوا دينهم علىٰ الـمعقول، وجعلوا الاتباع والـمأثور تبعـًا للمعقول، وأما أهل السُّـنَّة قالوا: الأصل في الدين الاتباع، والـمعقول تبع، ولو كان أساس الدين علىٰ الـمعقول لاستغنىٰ الخلق عن الوحي، وعن الأنبياء، ولبطل معنىٰ الأمر والنهي، ولقال مَنْ شاء ما شاء، ولو كان الدين بُنِـيَ علىٰ الـمعقول لجاز للمؤمنين أن لا يقبلوا شيئـًا حتىٰ يعقلوا ! " (١).

وأيُّ عَجَبٍ أعجبُ مِن عَقْلِ مَنْ أفرد الله بالربوبية ولم يفرد وحيه الـمنزل علىٰ رسوله كمصدر للتلقي والاحتجاج بالقبول؟!

ولهذا؛ أُلقِيَ في رَوْعِ علماء الـمسلمين مهمة تحديد مجالات استخدام العقل، وإنـهم لـعلَىٰ وعي تامٍّ بأنَّ فهم النص الشرعي يعتمد علىٰ العقل ولا بُـدَّ، وفي نفس الوقت يسعـون إلىٰ حفظ النص الشرعي من الفوضىٰ التفسيرية، والعبث الفكري، وكشف منهجية التأويل والتحريف للنص الشرعي التي ضَلَّتْ وأَضَلَّتْ، وإعلان الـمفاصلة التامة معها.

ولا أرىٰ دعاة تقديس العقل (الهوىٰ) والتغالي فيه إلا دعاة احتلال واستبداد واستعباد للعقول لا تحرير لها ولا تنوير.

(١) كما في [الحجة في بيان الـمحجة (١/ ٣٢٠ – ٣٢١) لقوام السُـنَّة أبـي القاسـم الأصـبهاني – ت مـحمد بن ربيع الـمدخلي – ط / دار الراية بالسعودية]

۞ القاعدة الرابعة:

لا يوجد تعارض صحيح معتبر بين العقل الصريح الخالي من الشهوات والشبهات والنقل الصحيح السالم من العلل والقوادح، فاتفاقهما أمر ضروري ولا بُدَّ لأن مصدرهما واحد، فالعقل من خلق الله، والوحي أمره ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ (الأعراف:٥٤)، ومراده واحد، وحكمته واحدة، وهي معرفة الحق والوصول إليه والعمل به، الحق الذي من أجله خلق الله السماوات والأرض كما قال جَلَّ شأنه: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (الجاثية:٢٢)، فهما وسيلتان لتحقيق هذا الحق، ولا يمكن بأيِّ حال أن يتناقضا معًا، ويتعارضا فيما بينهما، وكما لا يمكن أن يُبطِل الشرعُ دورَ العقل، فكذلك لا يُبطِل العقلُ دورَ الشرع، وبتآزرهما نفهم مراد الشارع من وجود الإنسان والحياة والكون، ولا يُخْرِجُ العقلَ عن حَدِّهِ المحدود إلا مَنْ يريد أن يعبد الله بهواه، لا بما أنزل الله علىٰ نبيه وأوحاه.

كيف يهب الله الإنسان العقل ليفكر ويكتشف ويستنبط ثم يجعله يختلف مع الشرع المنزل منه سبحانه؟! ويكونا في تضادٍّ ما بقيت في الأرض حياة؟! أيُّ عقل سليم يقبل بهذا الهذيان؟! ما لنا نحن المسلمون ولِلْفُرقةِ العنيفة الظالمة التي نشأت بين العلم والدين في أوروبا؟ فتلك لها أسبابها، ومحاولة استنساخها لتطبيقها علىٰ الإسلام وقيمه ومبادئه ودياره أمر ترفضه عقولنا قبل شرعنا.

ولهذا كان خطأً كبيراً وجناية غير مقبولة علىٰ العقل والعلم والدين استبيان الناس بسؤال: إذا اختلف الدين والعلم فمَنْ يُقَدَّم؟ لأنه لا خلاف حقيقي بين الدين

والعلم، ولا يوجد في الواقع علم صحيح يختلف مع الدين الصحيح، قال الفيلسوف الفرنسي آلكسي لوازون في كتابه (**حياة محمد**): " وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثًا أو المكتشفات الحديثة مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية، فالانسجام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية " (١).

وهذا يجعلنا نقول ملء أفواهنا: لا يجوز أن يعارض برهانُ العلم برهانَ الدين، لأن الحق لا يكون في شيئين متضادين، هذا غير موجود في العقول ولا في الواقع، ولا يمكن ذلك أصلاً، إلا أن يَكْذِبَ دعاة العلم بالتزوير، أو أهل الدين بالتحريف والتغيير.

وَلْنُلَخِّصْ هذا في التالي:

١) علم صحيح يوافقه دين صحيح.

٢) علم صحيح يخالفه دين محرف.

٣) علم مزيف يخالفه دين صحيح.

هذه هي القسمة الثلاثية المطابقة للواقع، أما:

٤) موافقة دين محرف لعلم مزيف فهو أكذب الكذب، ولا يوجد إلا عند أكذب الناس وهم اليهود مغيرو الشرائع، وخونة العهد، وقتلة الأنبياء وأتباعهم.

---

(١) كما في [الدين والعلم (ص ١٥٦) للمشير التركي أحمد عزت باشا - راجعه وشارك في تصحيحه د. عبد الوهاب عزام، وترجم أكثره حمزة طاهر - ط / لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر].

فأيُّ عِلمٍ يخالف ما بعث الله به نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو علم مزيَّـف، كنظرية داروين في أصل الأنواع حينما قرر أنَّ أصل الإنسان قرد، وأيُّ دينٍ يخالف العلم الصحيح فهو دين مفترىٰ علىٰ الله ورسوله كالاعتقاد بأنَّ ظاهرة الكسوف والخسوف الفلكية تقع بسبب موت أحد العظماء أو حياته تشاؤمـًا أو تفاؤلاً والتي أنكرها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوة في زمنه عندما مات ابنه إبراهيم وصادف موته كسوف الشمس، وبَـيَّنَ أنَّ ذلك بتقدير إلهي يقع بأسباب.

فالدين الإسلامي كقواعد وأحكام لا يـمكن إثبات مخالفتها للقوانين الطبيعية، بيد أنه وُجِدَ من بعض الشارحين لـمبادئ الإسلام وأحكامه وعقائده محاولات جعلتهم يتوسعون في بسطها وعرضها فوقعوا في بدع انسحبت علىٰ الدين نفسه، واصطدمت تفسيراتـهم الاجتهادية البشرية مع حقائق العلم التجريـبي، وما يقتضيه العقل والحكمة، لتفتح بابـًا كبيراً لكثير من الظنون الباطلة.

أما الذين قالوا بأنَّ ضربةً من سيف عليٍّ ذي الفقار اجتازت طبقات الأرض السبع، وكادت تشطر ثور الأرض، لولا أن وصل جبرائيل فأمسك بذلك السيف القهار، ومنع الهَـرْج والـمَرْج، وأنَّ الرعد والبرق ينجمان من غضب عليٍّ الذي عُرِجَ به إلىٰ السماء بعد وفاته ومن صياحه؛ فالفرق بين ما قالوا وبين أساطير الأولين وهذيان الـمجانين، هو أنـها أغلظ من الأساطير، وأضل من الهذيان، ولا مكان فيها للعقول، والإسلام منها براء، لأنه جيء بـها لهدم صرح الإسلام وعقائده الـمعقولة، وشرائعه الـمقبولة (١).

---

(١) وانظر [الدين والعلم (ص ١٣٢) مصدر سابق]

وثور الأرض الـمذكور منشور في حديث خرافة تزعم أنَّ الأرض معتمدة علىٰ صخرة، والصخرة علىٰ قرن ثور، فإذا حرك الثور قرنه تحركت الصخرة، فتحركت الأرض، وهي الزلزلة، وينسب علىٰ أنه من أحاديث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وهو كذب وهذيان لا يفكر فيه الصبيان فضلاً عن أن يقولوه (١). ولسنا نشك في أنَّ الأيام القادمة ستكشف لنا قيام بعض الدول والجهات والـمراكز العلمية خصوصـًا تلك الـمهتمة بالفلك باستخدام تقنيات متطورة كتقنيات **الذكاء الاصطناعي والهولوغرام** لتضليل الناس، وترويج أفكار وعقائد منحرفة وعرضها للناس كحقائق علمية ثابتة باسم العلم والكشف العلمي، وهذا شيء لا قيمة له، لأنه من العلم الـمُزَيَّف الـمُضَلِّل – ومنه الـمُسَيَّس – الذي يصطدم مع حقائق الدين ويقينيَّاته وثوابته.

فإنشاء ذَيَّاك السؤال ابتداءً باطل، وما بُـنِيَ علىٰ باطل فهو باطل.

ومن ثَـمَّ فلا يوجد في الإسلام تلك النُّـفرة الكريهة، ولا تلك الفُرقة البغيضة بين الدين والعلم، والعقل والنقل، ولم يشعر الـمسلمون قط في تاريخهم الـمجيد وهم يؤسسون لأعظم حضارة جمعت بين الروح والعقل " أنَّ الدنيا تنفصل في إحساسهم عن الآخرة، أو أنَّ الدين ينفصل عن الحياة " (٢) ويتوجب القول بعدئذ بأنه لا يوجد تصادم بين الدين والعقل في الحقيقة إلا عند مَنْ لم يُحسِن فهم كُلٍّ منهما.

وهذه القاعدة من أشرف القواعد لـمن عرف قدرها، ورعاها حقَّ رعايتها، قال شيخ الإسلام ابن تيـمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٧٢٨هـ): " صريح الـمعقول لا يناقض صحيح

---

(١) وانظر [الـمنار الـمنيف في الصحيح والضعيف (ص ٥٧ – ٥٨) لابن قـيم الجوزيـة – ت عبـد الرحمن الـمعلمي - ط / دار العاصمة بالسعودية]

(٢) كما في [قبسات من الرسول (ص ٣٧) لـمحمد قطب – ط / دار الشروق بـمصر]

المنقول، وإنما يقع التناقض بين ما يدخل في السمع (يعني القرآن والسُّنة) وليس منه، وما يدخل في العقل وليس منه " (١).

فإن وُجِدَ تعارض فليس بحقيقي، لأنه لا يخلو من إحدىٰ ثلاث حالات، وهي:

١) أنَّ ما ظنه رأيًا معقولاً ليس من العقل في شيء، بل هو ظنون فاسدة وشبهات سقيمة تَوَهَّمَ التعارض بينها وبين نصوص الشرع.

٢) أنَّ ما ظنه شرعًا منقولاً من الكتاب والسُّنَّة ليس كذلك، إما لعدم صحة نسبته وكَذِبِهِ فيما يتعلق بالسُّنَّة؛ وإما لعدم فهم المراد منه علىٰ الوجه الصحيح فيما يتعلق بالقرآن.

٣) أنه لم يفرق بين ما يحتار العقل في وقوعه وبين ما يمتنع وقوعه، فالأول له وجود في شريعة الله، بخلاف الثاني فلا وجود له (٢).

وبهذا تتكامل العلاقة بين العقل والنص الشرعي، ونصل إلىٰ المعرفة المطلوبة.

القاعدة الخامسة:

يَتَمَحْوَرُ دور العقل السليم تجاه النص الشرعي في سِتِّ وظائف، هي:

١) الكشف عنه.

٢) وتحديده.

٣) وفهمه.

---

(١) [درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٣٦٤) مصدر سابق]

(٢) وانظر [معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة (ص ٩٧) لمحمد بن حسين الجيزاني – ط / دار ابن الجوزي بالسعودية]

٤) والتسليم لِـمَا جاء به وتصديقه.

٥) والعمل به.

٦) والاستنباط منه.

ومن التَّـعَـقُّل أن لا نقحم العقل في غير مجاله من عالم الغيبيات، كعذاب القبر ونعيمه في البرزخ، وكيفيات صفات الله، وأحداث يوم القيامة الـمَهُولَةِ، والجنة والنار وما فيهما، فـما لهذا خُلِقَ، بل هذه قفزة مجنونة، وتبديد لطاقته للكشف عن غيوب لا قدرة له بـها، فالقوانين الفيزيائية في الحياة الدنيا لا يـمكن أن تُـقاس بـها أحوال الحياة البرزخية والحياة الأخروية، فلكلِ حياةٍ من الثلاث قوانينها الخاصة بـها، والله علىٰ كل شيء قدير.

وإذا أردنا أنْ نقوم بإعمال الوظائف السِّتِّ الـمذكورة علىٰ مثال فلنأخذ هذا النص القرآني، يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ١٥٤﴾ (البقرة: ١٥٤) فقد:

١) كشفنا عن وجوده في القرآن.

٢) وحَدَّدْنا نَصَّهُ، ولفظه، ومكانه.

٣) وفهمنا منه أنَّ للشهداء حياة لا نشعر بـها، وأنَّ تخصيصهم بالذكر يدل علىٰ التمييز الفخيم، ومزيد التشريف والتكريم.

٤) وسلَّـمنا بـما دَلَّ عليه، مصدقين خبره، جازمين بوقوعه، حيث مَنْ قُـتِلَ شهيداً ينتقل إلىٰ حياة جديدة أفضل من حياة غير الشهيد، سواء كان هذا الغير من الـمؤمنين فضلاً عن الكافرين، وأنَّ الـموت ظاهرة فيما يبدو لأحياء الدنيا، أما بـمجرد موته فهو ينتقل إلىٰ حياة أخرىٰ.

٥) عَمِلْنَا به.

٦) استنبطنا منه ما يلي:

أ) وجود نعيم زائد للشهداء علىٰ غيرهم من الـمؤمنين، إذ ذكرهم بالحياة دون غيرهم دالٌّ علىٰ ذلك، قال الإمام أبو جعفر الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٣١٠هـ): " الـمقصود بذكر الخبر عن حياتـهم إنـما هو الخبر عَمَّا هم فيه من الـنعمة " [(١)].

ب) أنَّ العقل لا يستطيع إدراك هذه الحياة الغيبية ولا إثباتـها لمحدوديته وعجزه، بل الوحي هو الـمخبر عن هذا وأمثاله، ودور العقل هنا التسليم، قال القاضي البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٦٨٥هـ): " وهو تنبيه علىٰ أن حياتـهم ليست بالجسد، ولا من جنس ما يحس به من الحيوانات، وإنـما هي أمر لا يُدرَك بالعقل بل بالوحي "[(٢)].

ج) أنَّ أحكامنا الدنيوية وقوانين حياتنا غير قابلة للتطبيق علىٰ ما بعد الـموت، فإنكار عذاب القبر ونعيمه بحجة أنه مخالف لقوانين الطبيعة ليس من العلم والعرفان، بل هو من الجهل والهذيان، لأن قوانين الطبيعة نفسها يحدث فيها تغييرات في حياتنا أحيانًا، ومنها الـمعجزات التي تحدث بقوانين أخرىٰ لا نعرفها، بل ما زالت مجهولة لنا، مع أنـها مكنونة في الكون الـمُكَوَّنِ بــ " كُـنِ " الخالقِ القديرِ علىٰ كل شيء سبحانه.

قال الإمام ابن قَـيِّم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٧٥١هـ): " وسِرُّ الـمسألة أنَّ هذه السعة والضيق، والإضاءة والخضرة، والنار ليس من جنس الـمعهود في هذا العالم والله

---

(١) [جامع البيان (٣/ ٢١٨) ت - أحـمد شاكر - ط / مؤسسة الرسالة بلبنان]

(٢) [تفسير البيضاوي (١/ ١١٤) ت - مـحمد عبد الرحمن الـمرعشلي – ط/ دار إحيـاء الـتراث العربي بلبنان]

سبحانه، إنـما أشهد بني آدم في هذه الدار ما كان فيها ومنها، فأما ما كان من أمر الآخرة فقد أسبل عليه الغطاء، ليكون الإقرار به والإيـمان سببًا لسعادتـهم " (١).

إنَّ هذه الحقيقة نجدها واضحة فيما رواه البخاري (٣٩٧٦) عن أبي طلحة الأنصاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أن نبي الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقُذِفوا في طَوِيٍّ من أطواءِ بدرٍ خبيثٍ مُخْبِثٍ، وكان إذا ظهر علىٰ قوم أقام العرصة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته، فَشُدَّ عليها رحلُها، ثم مشىٰ واتَّبَعه أصحابه، وقالوا: ما نرىٰ ينطلق إلا لبعض حاجته، حتىٰ قام علىٰ شفة الرَّكِيِّ فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يَا فُلاَنُ بْنَ فُلاَنٍ ! وَيَا فُلاَنُ بْنَ فُلاَنٍ ! أَيَسُرُّكُمْ أَنَّكُمْ أَطَعْتُمُ اللهَ وَرَسُولَهُ؟ فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟». قال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ؛ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ».

وجاء التصريح بأسمائهم في رواية مسلم (٢٨٧٤) عن أنس بن مالك الأنصاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ترك قتلىٰ بدر ثلاثـًا، ثم أتاهم فقام عليهم فناداهم فقال: «يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ ! يَا أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ ! يَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ ! يَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ ! أَلَيْسَ قَدْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟ فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا» فسمع عمر قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله ! كيف يسمعوا؟ وأنَّـىٰ يجيبوا وقد جَـيَّفُوا؟ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يُجِيبُوا» ثم أمر بـهم فسُحِبُوا، فأُلْقُوا في قَلِيبِ بدر.

---

(١) [الـروح (١/ ٣٢٧) ت - بسام علي العموش - ط / دار ابن تيمية بالسعودية]

د) عدم مساواتـهم بالكفار بعد الـموت، فحياتـهم لذة ونعيم، وحياة الكفار ألم وجحيم، وإلا فما فائدة ذكرهم بالحياة وتفخيم شأنـها بقوله: ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ١٥٤﴾ ؟! أيستوي وجود الكافر القاتل والـمؤمن الـمقتول في البرزخ؟ سبحان الله !! بل عدل الله وكماله يقضي بعدم مساواته سبحانه بين أرواح وأبدان أوليائه، وأرواح وأبدان أعدائه ! ولو لم ترد النصوص في عذاب القبر ونعيمه لكان العقل هنا دليلاً كافيـًا علىٰ إثباته، وتحقُّقِ وجُودِهِ لـمن كان له قلب أو ألقىٰ السمع وهو شهيد.

هـ) إثبات عذاب القبر بطريق اللزوم، قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٦٧١هـ): " وإذا كان الله تعالىٰ يحييهم بعد الـموت ليرزقهم - علىٰ ما يأتي - فيجوز أن يحيي الكفار ليعذبـهم، ويكون فيه دليل علىٰ عذاب القبر " (١)

إنَّ الجمود علىٰ أحوال الدنيا وجعلها ميزانـًا علىٰ ما يجري في البرزخ ويوم القيامة نقص في العقل، وحُمقٌ في الرأي، وضلال في الدين، ومجازفة بالإيـمان خطيرة، قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٦٧١هـ):" فأحوال الـمقابر وأهلها علىٰ خلاف عادات أهل الدنيا في حياتـهم، فليس تـنقاس أحوال الآخرة علىٰ أحوال الدنيا، وهذا ما لا خلاف فيه، ولولا أخبر الصادق صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بذلك لم نعلم شيئـًا مما هنالك " (٢).

وللإمام ابن قـيِّم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٧٥١هـ) كلام قـيِّم متين في حصول عذاب القبر أو نعيمه علىٰ الـمقبور ولو لـم يُدفن في قبره، فسيصله من العذاب أو النعيم في

---

(١) [الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٥٧٤) مصدر سابق]

(٢) [التذكرة بأحوال الـموتىٰ وأمور الآخرة (ص ٣٧٣) ت - د. الصادق بن مـحمد بن إبراهيم - ط / مكتبة دار الـمنهاج بالسعودية]

أي مكان مات فيه أو نقل إليه، وختم ذلك بقوله: " فعناصر العالم ومواده منقادة لربـها وفاطرها وخالقها، يصرِّفُها كيف يشاء، ولا يستعصي عليه منها شيء أراده، بل هي طوع مشيئته، مذللة منقادة لقدرته، ومَنْ أنكر هذا فقد جحد رب العالـمين، وكفر به، وأنكر ربوبيته " (١).

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٨٥٢هـ): " وإنـما أتىٰ الغلط من قياس الغائب علىٰ الشاهد، وأحوال ما بعد الـموت علىٰ ما قبله " (٢).

وهذا هو معنىٰ الإسلام بمفهومه العام القائم علىٰ التسليم والاستسلام لِـمَا أخبر عنه الله ورسوله، وليس بجعل العقل مرجعية، ولا الضمير حاكماً كما يقول بعضهم، قال الإمام أبو جعفر الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٣٢١هـ) في عقيدته الـمشهورة بــ (العقيدة الطحاوية): " ولا تـثبت قدم الإسلام إلا علىٰ ظهر التسليم والاستسلام " (٣).

وما أحسن الكلمة الذهبية التي عَبَّـرَ بـها الإمام الشافعي عن الـمنهجية الصحيحة السليمة الـمعقولة في التعامل مع نصوص الكتاب والسُّـنَّة، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٢٠٤هـ): " آمنتُ بالله وبـما جاء عن الله علىٰ مراد الله، وآمنتُ برسول الله وبـما جاء عن رسول الله علىٰ مراد رسول الله " (٤).

---

(١) [الروح (١/ ٣٣٣) - مصدر سابق]

(٢) [فتح الباري (٣/ ٢٣٥) مصدر سابق]

(٣) كمـا في [شـرح العقيـدة الطحاويـة (١/ ٢٣١) لابـن أبـي العـز الحنفـي - ت د. عبـد الله بـن عبد الـمحسن التركي وشعيب الأرناؤوط - ط / مؤسسة الرسالة بلبنان]

(٤) كما في [لـمعة الاعتقاد (ص ٧) لابن قدامة الـمقدسي - ط / الـمكتب الإسلامي بلبنان]

وإذن؛ " فعلينا إذاً كباحثين عن حقيقة ما في الإسلام أن نُقبِلَ علىٰ مَصدَرَيْـهِ وقد أفرغنا عقولنا من كل تصور سابق لم يستمدَّ منه مباشرة، أي أنْ يكون عقلنا صفحة بيضاء خالية من الفروض والنظريات والأفكار الـمسبقة، ومستعدة لتلقي الحقائق كما هي " [١]، وغنيٌّ عن القول التأكيد علىٰ أنَّ معرفة مراد الله ورسوله علمٌ له آلية معلومة تُطلَب من مظانـها الأصيلة وأهلها الـمعروفين، كما تُطلَب آلية أيِّ علم من مظانه وأهله.

۞ القاعدة السادسة:

دين الله الإسلام كامل من كل الوجوه التي يحتاجها المكلفون في دينهم ودنياهم وأخراهم، قال ربنا جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ (المائدة : ٣)، وهذا الكمال تنتظمه عشرات القواعد الجامعة، والأصول الكلية التي تندرج تحتها ما لا يُحصىٰ من الجزئيات، وما لا نـهاية لها من النوازل التي تستجِدُّ في دنيا الناس ودينهم، ويتأيَّـدُ هذا بقوله تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ (النحل : ٨٩)، وقد قال نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ» رواه أحـمد (١٧١٧٤) [٢] والطبراني في مسند الشاميين (١٠٦١).

---

(١) كما في [قواعد منهجية للباحث عن الحقيقة في القرآن والسُّـنَّة (ص ١٦) د. فاروق أحمد حسن دسوقي – ط / دار الدعوة بـمصر]

(٢) بإسناد صحيح كما قال محققو [مسند أحـمد (٢٨ / ٤١١) – ط / دار الرسالة]

فكمال الدين إنـما يكون باجتماع السُّـنَّة مع القرآن، وهذا الكمال محفوظ وباقٍ إلىٰ يوم القيامة.

وبذا نعلم أنَّ شبهة منكري عذاب القبر ونعيمه حين زعموا أنَّ عذاب القبر لو كان حقـًا لذكر في القرآن شبهة باطلة، لأنَّ فيها التفافًا علىٰ القرآن وضربًا لآياته بعضها ببعض، وتصديقًا ببعض وتكذيبًا بأخرىٰ، ولو فَطِـنُوا لِـمَا يخرج من رؤوسهم لعلموا أنـهم تنقَّصُوا كمال الدين حين كذَّبوا بنصوص السُّـنَّة في عذاب القبر ونعيمه، والسُّـنَّةُ شطر كمال الدين الثاني بعد القرآن الـمبيِّنةُ له، بل وفيها ما لا يوجد في القرآن من الأحكام والشرائع الـمفصَّلة والتي منها ما له علاقة بأركان الإسلام والإيـمان، وما دون ذلك مما له علاقة بالـمعاملات بين الناس، ولعلموا أنَّ تكذيبهم بالسُّـنَّة يؤول ولا بُـدَّ إلىٰ التكذيب بالقرآن نفسه، وحسبهم هذا الدليل العقلي الـمُوجب لقبول السُّـنَّة واتباعها، أفلا يعقلون؟

ولقد أحسن الوزير أبو الفتح ضياء الدين ابن الأثير الكاتب الأديب رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٦٣٧هـ) فقد أوصىٰ قائلاً: " ولا تكن مِـمَّنِ اتبع الرأي والنظر، وترك الآية والخبر، فحكمة الله مطوية فيما يأمر به علىٰ ألسنة رسله، وليست مِـمَّا يستنبطه ذو العلم بعلمه، ولا يستدل عليه ذو العقل بعقله، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [(النساء ٨٢)] " (١).

---

(١) مـن كتابـه [الــمثل السـائر في أدب الكاتـب والشـاعر (٢/ ١٤١) - ت مــحمد محي الـدين عبد الحميد - ط / الـمكتبة العصرية بلبنان]

وهذا يقودنا إلى التأكيد على:

۞ القاعدة السابعة:

وهي: **أوجب الله علىٰ كل مؤمن ومؤمنة إفراد الرجوع إلىٰ كتابه وسُـنَّـة رسوله عند التنازع والاختلاف في أيِّ شيء، وجعل ذلك شرطًا يدل علىٰ صحة إيمانـهم بالله واليوم الآخر** فقال عَزَّ أمره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ۝٥٩﴾ (النساء: ٥٩)، وهذا أصل من أصول الإسلام الكبرىٰ، يدل علىٰ أنَّ الشريعة حاكمة بين الـمختلفين في أيِّ خلاف، ديني أو دنيوي، فهما الـمصدر الوحيد للحقائق الغيبية والتشريعية والتاريخية، لأنَّ ﴿شَيۡءٖ﴾ في قوله: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ﴾ نكرة في سياق الشرط فَـتَـعُـمُّ كل تنازع يقع بين الـمختلفين، ولا يُحَلُّ أيُّ نزاع إلا بهما، وإنْ لم يحصل بـهما حَلُّ النزاع وذهب الناس إلىٰ غيرهما كالعـقل مثلاً؛ لم يكن للأمر بالرَّدِّ إليهما فائدة، وهذا باطل، قال الإمام أبو مـحمد ابن أبي زيد القيرواني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٣٨٦هـ): " لأنَّ الله لم يأمر عباده عند التنازع بالرَّدِّ إلىٰ كتابه وسُـنَّة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا وفيهما دليل علىٰ الحكم في كل حادثة " (١).

فالحق لا يخرج عن الكتاب، ولا يحصل البيان الشافي له إلا بالسُّـنَّة كما قال الله جَلَّ أمره في سورة (النحل: ٤٤): ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾، فلا تأسيس لعقيدة، ولا تثبيت لحكم قبل الرجوع إليهما أو

---

(١) [الـذَّبُّ عن مالك (ص ٢٦٢) – ت د. مـحمد العَـلَمي – ط / الرابطة الـمحمدية للعلماء ومركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث بالـمغرب]

أحدهما عملاً بالقاعدة العلمية (**استدل ثم اعتقد**) التي ورثناها عن سلفنا الصالحين، خلافًا للمبتدعة الذين جعلوا الرجوع إليهما أو أحدهما بعد الرأي عملاً بقاعدتهم البدعية (**اعتقد ثم استدل**)، وهذه المنهجية المختلة تكشف إقدام بعض المعاصرين في قضايا الغيب - والتي منها عذاب القبر ونعيمه وفتنته - علىٰ البحث فيها بنتائج وأحكام مسبقة، ولا شكَّ أنَّ هذا خلل منهجي، وجهل مغلَّف بالعلم.

إنَّ منهج القرآن واضح في إيجاب الرجوع إلىٰ الكتاب والسُّنَّة وكيفية تحقيق ذلك اعتقاداً وقولاً وعملاً في جميع ما يدعو إليه الدين الذي أنزله الله علىٰ عباده، أما دعاة العقل المنتصرون للتحاكم إليه وما يحكم به ! فحقيقة ما يدعون إليه ومآله هو رفض لمنهج القرآن وتعاليمه، وتعطيل لمعطياته النَّصِّية.

ويتفرع من هذه القاعدة:

۞ القاعدة الثامنة:

لا تفريق في وجوب الأخذ بين ما جاء عن الله في كتابه أو رسوله في سنته، فنصوصهما معًا تُشَكِّلُ وحدة متكاملة متآلفة، وبمجموعها يتبين مراد الله ورسوله، أما أخذ بعضها ورَدُّ بعضها؛ والتفريق بينهما بالإيمان بحجية القرآن، وعدم الإيمان بحجية السُّنة فهذا داخل في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١﴾ (النساء: ١٥٠-١٥١)، فهل بعد هذا البيان بيان؟ وهل بعد هذا الكفر كفر؟

وفي هذا يقول الإمام أبو محمد ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٤٥٦هـ): " وإذ قد بين الله لنا أن كلام نبيه إنما هو كله وحي من عنده، وأن القرآن وحي من عنده، وأيضًا فقد قال فيه عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [(النساء: ٨٢)]، فَصَحَّ بهذه الآية صحة ضرورية أن القرآن والحديث الصحيح متفقان، هما شيء واحد لا تعارض بينهما ولا اختلاف، يوفق الله تعالىٰ لفهم ذلك مَنْ شاء من عباده، ويحرمه مَنْ شاء، لا إله إلا هو " (١).

إن هذه القاعدة التي تعتبر من مسلمات الإسلام ومبادئه وأصوله تعدَّاها أقوام وفِرَقٌ إلىٰ أصول أخرىٰ مأخوذة من أفكار البشر ومعقولاتهم، وزُيِّنَ لهم سوء صنيعهم فذهبوا يخلطونها بالوحي السماوي، وخرجوا علىٰ الناس بعدها بقرآنات متعددة بدلاً من قرآن الله المجيد، فكان التخبط والتناقض والتنازع والتنكب وصدُّ الناس عن الصراط المستقيم الذي بعث الله به رسوله، وكسبُ إثم العاملين بضلالهم دهر الداهرين.

۞ القاعدة التاسعة:

الإيمان برسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أصل من أصول الإيمان، وهو المبلغ عن الله دينه للناس، وما أوحاه الله إليه هو الطريق الأوحد لبيان ذلك.

وقد تعددت آيات القرآن لبيان مقتضيات ولوازم هذا الإيمان، فمن ذلك:

١) آيات تجعل طاعة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ طاعة مستقلة كطاعة الله، قال الله جَلَّ أمره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ (النساء: ٥٩).

---

(١) [الإحكام في أصول الأحكام (١/ ١٠٠) مصدر سابق]

٢) آيات تجعل طاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طاعةً لله عَزَّوَجَلَّ، كقوله تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ (النساء:٨٠).

٣) آيات تجعل طاعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شرطًا لتحقيق الإيمان الواجب كقوله تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ٦٥﴾ (النساء : ٦٥) قال الإمام الحافظ أبو حاتم ابن حِبَّان رَحِمَهُ اللَّهُ (ت٣٥٤هـ): " ولم يقل حتىٰ يحكِّموا فلانًا وفلانًا فيما شجر بينهم، ولا قال: حرجًا مما قضىٰ فلان وفلان، فالـحَكَمُ بين الله عَزَّوَجَلَّ وبين خلقه رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقط" (١).

٤) آيات تحذِّر من مخالفة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كقوله تعالىٰ: ﴿ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣﴾ (النور : ٦٣) هذه عقوبة الـمخالفين؛ فما تكون عقوبة الـمنكرين الـمكذبين دعاة (لم يدخل عقلي)؟ هداهم الله.

٥) آيات تأمر بالرجوع إلىٰ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته وإلىٰ سنته بعد موته عند التنازع في أيِّ شيءٍ كقوله تعالىٰ: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ (النساء:٥٩).

---

(١) [الـمجروحين من الـمحدثين والضعفاء والـمتروكين (١/ ٥) - ت مـحمود إبـراهيم زايـد - ط / دار الـمعرفة بلبنان]

٦) آيات تبيِّن أنَّ طاعة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبب لنيل محبة الله ومغفرته ورحمته وهدايته كقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ (آل عمران: ٣١).

٧) آيات جعلت سنة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بياناً لِـما في القرآن الكريم: بتفصيل مجمله، وتفسير مبهمه، وتخصيص عامِّه، وتقييد مطلقه، ورد متشابـهه إلىٰ محكمه، وشرح أحكامه، وبيان ما سكت عنه كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (النحل: ٤٤) والآيات التي تذكر الإيـمان برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومُتَعَلَّقَاتِهِ كثيرة، ولو تفرغ أحد لجمعها، وبيان معانيها، وما تدل عليه لاحتاج ذلك إلىٰ كتاب حافل، وفيـما ذُكِـرَ كفاية لـمن له في رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسوة حسنة يرجو بـها الله واليوم الآخر.

ويتضح من مجموع هذه الآيات ما يلي:

١) دلالة القرآن علىٰ أصل حُـجِّـية السُّـنَّة، وأنـها مصدر للتشريع.

٢) دلالة القرآن علىٰ دوام حجية السُّـنَّة، لأنـها جاءت خطاباً لجميع الأمة، مَنْ كان في زمن النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسمع منه مباشرة أو جاء بعده فسمع مِـمَّن نقل الأحاديث عنه.

٣) دلالة القرآن علىٰ حفظ السُّـنَّة من الضياع والتحريف.

القاعدة العاشرة:

القرآن يأمر مطلقاً باتباع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وطاعته فيما نـهىٰ وأمر، وتصديقه فيما حَدَّثَ به وأخبر، لأنه مبلغ ذلك بوحي من الله كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ

﴿٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ٤﴾ (النجم: ٣-٤)، وهذا عام في كل ما يتعلق بالعقائد والعبادات والـمعاملات والسلوك والأخلاق فهو بوحي من الله، سواء كان الـمنقول عنه آحاديـًا أو متواتراً، ولا حجة لـمَنْ فَـرَّقَ بينهما إلا التعـنُّت، فالتكذيب بسُـنَّته الصحيحة تكذيب بالقرآن ولا بُـدَّ، والتكذيب بالقرآن كفر بالإجماع، إذ كيف يأمرنا الله جَلَّ وَعَلَا في كتابه باتباع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والرَّدِّ إلىٰ سُـنَّته بعد موته؛ ثم تبقىٰ أمته بعد موته بلا سُـنَّةٍ تتخبط في مستحسنات الآراء والعقول، وتَـتِـيهُ بين مذاهب الشرق والغرب؟ ولكن لماذا؟ لأن سُـنَّته عندهم صارت عديمة الثبوت لتكذيبهم ناقليها، وسقط الاحتجاج بآحادها في مسائل العقيدة، وما ثبت منها فلا بُـدَّ من إخضاعه لـميزان العقل ومواكبة العصر ولو كان بأصح الأسانيد واتفقت الأمة علىٰ تلقيه بالقبول؟!

سبحان الله ! ما أشنع هذا القول وأنكده علىٰ الـمسلمين إنْ صَـدَّقُوه ! هل ضاع الدين؟ هل نقص بعد اكتماله؟ أرأيتم سوء عاقبة القول بإنكار السُـنَّة سواء من جهة أصلها؛ أو من جهة نقلها؟! قال الإمام مـحمد بن إبراهيم الوزير القاسمي اليـماني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٨٤٠هـ): " التكذيب لحديث رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع العلم أنه حديثه كفرٌ صريحٌ " (١).

۞ القاعدة الحادية عشرة:

أجمع الـمسلمون علىٰ أن كل آية فيها الأمر بطاعة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتباعه والتحاكم والرَّدِّ إليه فذلك يكون إليه في حياته، وإلىٰ سُـنَّته - سواءً نقلت بالآحاد أو

---

(١) [العواصم والقواصم في الذب عـن سـنة أبـي القاسـم (٢/ ٣٧٤) - ت شـعيب الأرنـاؤوط - ط / مؤسسة الرسالة بلبنان]

التواتر – بعد وفاته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **لا خلاف بينهم في ذلك**، قال الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ (النساء : ٥٩) " قال مجاهد وغير واحد من السلف: أي إلىٰ كتاب الله وسُـنَّة رسوله " نقله الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٧٧٤هـ) في تفسيره[١]، وأكَّدَ هذا الإمام الفقيه عبد العزيز الكناني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٢٤٠هـ) فقال [٢]:

" هذا مالا خلاف فيه بين المؤمنين وأهل العلم، إنْ رددناه إلىٰ الله فهو إلىٰ كتاب الله، وإنْ رددناه إلىٰ رسوله بعد وفاته رددناه إلىٰ سُـنَّته، وإنـما يشك في هذا الملحدون ".

ومسألة عذاب القبر ونعيمه مثال صالح لتطبيق هذه القاعدة، فكل مؤمن رضي بالكتاب والسُّـنَّة مَرْجِـعَـينِ له عند التنازع؛ فإنه ينظر أولاً في القرآن هل ذُكِـرَ هذا الأمر فيه أم لا؟ فإنْ ذُكِـرَ فقد حصل الـمقصود، وإنْ لـم يُذكَـر نظر في سُـنَّـة رسول الله التي أمره القرآن باتباعها والتحاكم والـرَّدِّ إليها هل ذُكِـر فيها عذاب القبر ونعيمه أم لا؟ ويكون بـهذا قد امتثل أمر الله، وبرهن علىٰ صدقِ إيـمانه بالله واليوم الآخر كما هو صريح في آخر الآية: ﴿... فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ (النساء : ٥٩)، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٧٧٤هـ) معلِّـقـاً [٣]: " فَدَلَّ علىٰ أنَّ مَنْ لم يتحاكم في محل النزاع إلىٰ الكتاب والسُّـنَّة ولا يرجع إليهما في ذلك؛ فليس مؤمنًا بالله ولا باليوم الآخر "

---

(١) [تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٤٥) – ت سامي بن مـحمد سلامة – ط / دار طيبة بالسعودية]

(٢) [الحيـدة والاعتـذار (ص ٣٢) – ت د. علـي بـن ناصـر فقيهـي – ط / الجامعـة الإسـلامية بالـمدينة الـمنورة بالسعودية]

(٣) [تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٤٦) – مصدر سابق]

القاعدة الثانية عشرة:

لا يوجد تعارض حقيقي بين آيات القرآن وأحاديث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ الكُلُّ وحيٌ من الله، فآيات القرآن لفظها ومعناها من الله عَزَّ وَجَلَّ، وأحاديث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معناها من الله ولفظها من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الله عن نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ (النجم: ٣ - ٤).

وكيف لهما أن يتعارضا ومُنزِّلُهُما واحد جَلَّ وَعَلَا القائل: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٣١) والحكمة هي السُّنَّة كما بَيَّنَ العلماء، ويقول سبحانه: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٦٤﴾ (النحل: ٦٤) قال حسان بن عطية المحاربي رَحِمَهُ اللهُ (ت بعد ١٢٠هـ): " كان جبريل ينزل على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالسُّنَّة كما ينزل عليه بالقرآن ، ويعلمه إياها كما يعلمه القرآن " (١).

فالعلم في الكتاب وفي السُّنَّة المبيِّنة له، وكله من الله، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم لذلك كله كما قال الإمام الزُّهري رَحِمَهُ اللهُ (ت١٢٥هـ): " من الله العلم، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم " (٢).

---

(١) [السُّنَّة (ص ٣٢ – ٣٣ برقم ١٠٢) للمروزي – ت سالم أحمد السلفي – ط / مؤسسة الكتب الثقافية بلبنان] وإسناده صحيح.

(٢) كما في [الاقتصاد في الاعتقاد (ص ٢١٥) لعبد الغني المقدسي – ت د. أحمد بن عطية الغامدي – ط / مكتبة العلوم والحكم بالسعودية]

فإنْ يوجد تعارض فَوَهَمٌ في فهم القارئ، ولا حجة لفهمه الواهم علىٰ كتاب الله وسُنَّة رسوله وقد جعل فهمه أو تفسيره الخاطئ مساوياً لقدسية النص نفسه، بل يجب أن ينشرح الصدر، ويطمئن القلب، وتتيقَّن الثقة بأنَّ كلام الله وكلام رسوله حق، ولا اختلاف بينهما ولا تعارض، وإنما يتوهم القارئ ذلك بسبب الجهل، أو سوء الفهم، أو قصور الإدراك، أو المنهج المنحرف الذي يسير عليه في التعامل مع كتاب الله وسُنَّة رسوله، وسيزول كل ذلك بجمع الآيات والأحاديث في الموضوع الواحد وملاحظة فهم الصحابة لها، مع مراعاة مقاصد الدين وكلياته لمعرفة مراد الله ورسوله فيه، وهنا تظهر مهمة العلماء بِما عند كلٍّ واحدٍ منهم من رسوخ العلم، والإحاطة بأدلة الكتاب والسُّنَّة، والاطلاع التام علىٰ أقوال الصحابة، وضبط فقه المقاصد، والمعرفة بفقه الواقع، وفوق كل ذي علم عليم.

ولهذا؛ فكثير من هؤلاء العقلانيين لا يملكون الأدوات النقدية العلمية لدراسة النص الشرعي (قرآن وسُنَّة) وتراثه الثَّري، ويظهر ضعفهم في التأصيل الشرعي كسمة بارزة لا تنفكُّ عنهم، وإنَّ هشاشة الوعي ومحدودية القدرات العلمية عندهم جعلت عقولهم أرضاً خصبة مهيئة لاستقطاب العقائد المنحرفة، والمفاهيم المزيفة، والأفكار المُمْعِنةِ في الضلال، ويتوجب عليهم إن كانوا مؤمنين بالنص الشرعي وقدسيته وصحته وصلاحيته ودوامه أن يسعوا إلىٰ تفسيره بأفضل وجوه معانيه الممكنة لجعله معقولاً متناسقاً ضمن الوحدة العامة للنصوص الأخرىٰ الدائرة في فلك مقاصد الإسلام وما يطابقها من شواهد الواقع.

۞ القاعدة الثالثة عشر:

ضَمِنَ الله لنا حفظ سُنَّة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أيِّ تغيير أو تضييع كما ضمن حفظ كتابه من أيِّ زيادة أو نقصان في لفظه أو تحريف أو تبديل في معناه، فقول الله جَلَّ وعَزَّ مؤكداً حفظ كتابه بأبلغ أساليب التوكيد: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ (الحجر: ٩) مع قوله الآخر في سورة (النحل: ٤٤): ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝٤٤﴾ يدل علىٰ أنَّ الحفظ يشمل القرآن والسُّنَّة التي تبينه، إذ لا يمكن أن يتحقق تمام حفظ القرآن إلا بحفظ بيانه، كيف يَحفظ اللهُ اللفظ المُبَيَّنَ (القرآن) ولا يحفظ المعنىٰ المُبَيِّنَ (السُّنَّة)؟ هذا محال، وضربُ خبالٍ !! فاقتضىٰ هذا حفظ السُّنَّة التي بها بيان القرآن، إذ لولا حفظ الله للسُّنَّة لبقي كثير من القرآن مجملاً لا يُدرىٰ كيف بيانه؟ وحينها سيُفَسِّرُهُ الناس بعقولهم القاصرة المتناقضة فيختلفون ويتفرقون ويتنازعون، ثم ينقص الدين شيئًا فشيئًا حتىٰ ينتهي ويزول، وهذا ما يريده الزنادقة السابقون واللاحقون، ولكنَّ الله خيَّبَ سعيهم وما يريدون فقال جَلَّ شأنه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٣٢ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٣٣﴾ (التوبة ٣٢-٣٣) فقد تكفل الله بإتمام نوره وإظهار دينه، والسُّنَّة من الدين، فهي علىٰ هذا داخلة في الحفظ الرباني لدينه المريد إظهاره علىٰ الدين كله، وبذلك يتحقق حفظ الله للقرآن من التبديل، والسُّنَّة من الضياع، قال الإمام أبو محمد ابن حزم

رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٤٥٦هـ): " الوحي ينقسم من الله عَزَّوَجَلَّ إلىٰ رسوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ قسمين:

أحدهما: وحي متلو مؤلف تأليفاً مُعجِزَ النظام وهو القرآن.

والثاني: وحي مروي منقول غير مؤلف، ولا معجز النظام، ولا متلو لكنه مقروء، وهو الخبر الوارد عن رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو المبين عن الله عَزَّوَجَلَّ مراده منا" (١).

وقال موضحاً كيف أنَّ الله حَفِظَ السُّنَّة ليبقىٰ الذكر محفوظاً: " لا سبيل البتة إلىٰ ضياع شيء قاله رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدين، ولا سبيل البتة إلىٰ أن يختلط به باطل موضوع اختلاطاً لا يتميز عن أحد من الناس بيقين، إذ لو جاز ذلك لكان الذكر غير محفوظ، ولكان قول الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [(الحجر: ٩)] كذباً ووعداً مخلفاً، وهذا لا يقوله مسلم" (٢).

ومعنىٰ كلامه أنَّ مَنْ زعم عدم وجود للسُّنَّة فقد كَذَّبَ بالقرآن، وجعل ما وعد الله به من حفظه كذباً لا صدق فيه؛ فقائل هذا غير مسلم، لأن المسلم يؤمن بحفظ الله للقرآن، ويؤمن بأن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيَّنَ القرآن كما أمره ربه، فكيف يحفظ الله قرآنه المُبَيَّنَ ولا يحفظ بيانه المُبَيِّنَ؟

وكيف لمسلم ينتسب إلىٰ دين الإسلام الكامل المحفوظ ثم هو ينازع في حُجِّيَّة السُّنَّة؟ ألا يعقل ما يقول وما يؤول إليه ما يقول؟ لقد أبطل بمذهبه هذا دين الإسلام

(١) [الإحكام في أصول الأحكام (١/ ٩٧) مصدر سابق]

(٢) المصدر السابق (١/ ١٢١ – ١٢٢).

كله من أوله إلىٰ آخره !! " فإنَّ أساس هذا الدين هو الكتاب، ولا يـمكن القول بأنه كلام الله مع إنكار حجية السنة جملةً، فإنَّ كونه كلام الله لم يثبت إلا بقول الرسول الذي ثبت صدقُه بالـمعجزة أنَّ هذا كلام الله وكتابه، وقول الرسول هذا من السُّـنَّة التي يُزعم أنـها ليست بحجة، فهل هذا إلا إلحاد وزندقة؟! وإنكار للضروري من الدين يُقصَدُ به تقويض الدين من أساسه؟! " (١).

وصدق مَنْ قال: (**إنَّ السُّـنَّة هي العدسة الأساسية لفهم الرسالة القرآنية**)، وبغير السُّـنَّة تـتَـطرَّفُ الأفهام، وتَـتَـفَارطُ الأحكام، حتىٰ تتمرد علىٰ الدين البشرية، وتنبذه بالكلية، وتكفر بـما جاء به خير البرية، وهذه هي العاقبة الوخيمة التي ستؤول إليها الدعوات العقلانية، ورحم الله إمام دار الهجرة مالك بن أنس الأصبحي، فقد كان كثيراً ما ينشد:

وَخَيْـرُ أُمُـورِ الـدِّيْنِ مَـا كَـانَ سُـنَّةً ... وَشَـرُّ الأُمُـورِ المُحْـدَثَاتُ البَـدَائِعُ

وهذا يجعلنا ندرك لِـمَ كانت الشهادة - التي هي أول أركان الإسلام - تتكون من شطرين، شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محـمداً رسول الله؟ فلا يدخل أحد الإسلام إلا بـهما معًا، ولا يُقبل بأحدهما دون الآخر، ولِـمَ كان الوحي شطرين، شطراً مَتلُوَّاً مُعجِزاً هو القرآن، وشطراً غير مَتلُـوٍّ هو السُّـنَّة؟ وقد أخرج الحاكم في مستدركه (٣٧٢) والطبراني في معجمه الكبير (٣٦٩) بإسناد صحيح عن الحسن قال: بينما عمران بن حصين يُـحَدِّث عن سُـنَّةِ نبينا صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ قال له رجل: يا أبا نُجَيد ! حَدِّثْـنا بالقرآن، فقال له عمران: أنت وأصحابك يقرؤون القرآن؛ أكُنتَ مُـحَدِّثي عن

---

(١) كما في [حجية السُّـنَّة (ص ٢٤٩ - ٢٥٠) د. عبد الغني عبد الخالق - ط / دار الوفاء بـمصر]

الصلاة وما فيها وحدودها؟ أكُنتَ مُـحَدِّثِي عن الزكاة في الذهب والإبل و البقر وأصناف الـمال؟ ولكن قد شهدتُّ وغبتَ أنت. ثم قال: فرض علينا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الزكاة كذا وكذا، وقال الرجل: أحييتني أحياك الله. قال الحسن: فما مات ذلك الرجل حتىٰ صار من فقهاء الـمسلمين.

ورویٰ الإمام أبو عمر ابن عبد البر الأندلسي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت٤٦٣هـ) بسنده(١) أنَّ رجلاً قال لـمُطَرِّف بن عبد الله بن الشِّخِّيرِ: لا تحدِّثونا إلا بالقرآن، فقال له مطرف: والله ما نريد بالقرآن بدلاً، ولكن نريد مَن هو أعلم بالقرآن منا. يقصد أنَّ السُّنَّة تبيِّن القرآن، وأنَّ التحديث بحديث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الوسيلة لبيان ما في القرآن، وأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعلم الناس بالقرآن.

والدعوة إلىٰ الرجوع إلىٰ القرآن وحده دعوة إلىٰ مخادعة للنفس، ويخدع أصحابها غيرهم عندما يُضِلُّونهم عن الطريقة الصحيحة لفهم القرآن دون الرجوع إلىٰ الـموروث العلمي (السُّنَّة)، ولا يـمكنهم الهروب من هذا الـميراث الذي دَلَّ أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الأمةَ عليه، ففي معجم الطبراني الأوسط (١٤٢٩) عنه أنه مَرَّ بسوق المدينة فوقف عليها فقال: يا أهل السوق ! ما أعجزكم !! قالوا: وما ذاك يا أبا هريرة؟ قال: ذاك ميراث رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَسَّمُ وأنتم ها هنا؟! ألا تذهبون فتأخذون نصيبكم منه؟ قالوا: وأين هو؟ قال: في الـمسجد، فخرجوا سراعًا، ووقف أبو هريرة لهم حتىٰ رجعوا فقال لهم: ما لكم؟ فقالوا: يا أبا هريرة ! قد أتينا الـمسجد فدخلنا

---

(١) في [جامع بيان العلم (٢/ ١١٩٣) ت/ أبي الأشبال الزهيري – ط/ دار ابن الجوزي بالسعودية]

فيه فلم نر فيه شيئًا يُقَسَّمُ، فقال لهم أبو هريرة: وما رأيتم في الـمسجد أحداً؟ قالوا: بلىٰ؛ رأينا قومًا يصلون، وقومًا يقرؤون القرآن، وقومًا يتذاكرون الحلال والحرام، فقال لهم أبو هريرة: ويحكم ! فذاك ميراث مـحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " (١).

ولن يستطيع أيُّ مسلم صادق أو باحث منصف الاستغناء عن سُـنَّة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فهم القرآن، ومصير هؤلاء التناقض الحتمي، والضعف الدائم في أقوالهم وآرائهم.

إنَّ سُـنَّة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي الـمرجعية التي من خلالها يستطيع الفقهاء تقديم الإجابات علىٰ كثير من مسائل الدين التي جاءت مجملة ومبهمة في القرآن، أو هي معدودة من عالم الغيب الذي تبحث النفس البشرية عن جواب شافٍ له.

وأجدني بحاجة إلىٰ تدوين هذه النقول العلمية الـمباركة من الحفاظ النُـقَّاد أهل الاختصاص في علم الحديث وهي تسلط الضوء علىٰ أهمية الإسناد الناقل لأحاديث رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه من خصائص هذه الأمة دون سائر الأمم، وعلاقة حفظ السُّـنَّة بحفظ القرآن، وكيف تَـمَّ حفظها:

١) قال عَبْدَةُ بن سليمان الـمروزي: " قلت لابن الـمبارك: أما تخشىٰ علىٰ العلم أن يجيء الـمبتدع فيزيد في الحديث ما ليس منه؟ قال: لا أخشىٰ هذا بعيش الجهابذة النقاد " (٢).

---

(١) [صحيح الترغيب والترهيب (٨٣) للألباني - ط / مكتبة الـمعارف بالسعودية]

(٢) كما في [التمهيد لـما في الـموطأ من الـمعاني والأسانيد (١/ ٦٠) لابن عبـد البـر الأندلسـي - ت مصطفىٰ بـن أحمـد العلـوي وصـاحبه - ط / وزارة عمـوم الأوقـاف والشـؤون الإسـلامية بالـمغرب]

٢) وقال الإمام الحافظ الناقد أبو حاتـم الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٢٧٧هـ):" لم يكن في أمة من الأمم مذ خلق الله آدم أمة يحفظون آثار نبيهم غير هذه الأمة. فقال رجل: يا أبا حاتم ! أهل الحديث ربـما رَوَوْا حديثاً لا أصل له، ولا يحفظون؟ فقال: علماؤهم يعرفون الصحيح من السقيم، فروايتهم الحديث الواهي للمعرفة ليتبـين لِـمَنْ بعدهم أنـهم ميزوا الآثار وحفظوها " (١).

٣) وقال الإمام الحافظ الناقد أبو حاتم ابن حبان البُسْتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٣٥٤هـ): " ولو لـم يكن الإسناد وطلب هذه الطائفة له لظهر في هذه الأمة من تبديل الدين ما ظهر في سائر الأمم، وذاك أنه لم يكن أمة لنبيٍّ قط حفظت عليه الدين عن التبديل ما حفظت هذه الأمة، حتىٰ لا يتهيأ أن يُزاد في سُنَّة من سنن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَلِفٌ ولا وَاوٌ، كما لا يتهيأ زيادة مثله في القرآن، فحفظت هذه الطائفة السنن علىٰ المسلمين، وكثرت عنايتهم بأمر الدين، ولولاهم لقال مَنْ شاء بـما شاء "(٢).

٤) وقال إمام أهل السُّـنَّة أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٢٤١هـ) في الإمام النَّـقَّاد حافظ الإسلام وأمير الـمؤمنين في الحديث في زمانه يحيىٰ بن معين البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٢٣٣هـ): " ها هنا رجل خَلَقَهُ الله لهذا الشأن، يُظهِرُ كَذِبَ الكذابين، يعني ابن معين" وقال: " كل حديث لا يعرفه يحيىٰ بن معين؛ فليس هو بحديث " (٣).

---

(١) نقله عنه الحافظ ابن عساكر الدمشقي في [تاريخ دمشق (٣٨ / ٣٠ – ١٣) – ت عمرو بن غرامة العمروي – ط / دار الفكر بلبنان]

(٢) [الـمجروحين من الـمحدثين (١ / ٢٥) مصدر سابق]

(٣) نقله الحافظ الذهبي في [سير أعلام النبلاء (١١ / ٨٠) – ت صالح السمر بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط – ط / مؤسسة الرسالة بلبنان]

٥) وقال الإمام الناقد الـمؤرخ أبو مـحمد ابن حزم الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٤٥٦هـ) أول مؤرخ للأفكار الدينية في العالم(١) في بيان أهمية الإسناد الذي به حُـفِظَتِ السُّـنَّة: " ما نقله الثقة عن الثقة كذلك حتىٰ يبلغ إلىٰ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يخبر كل واحد منهم باسم الذي أخبره ونسبه، وكلهم معروف الحال والعين والعدالة والزمان والـمكان علىٰ أنَّ أكثر ما جاء هذا المجيء فإنه منقول نَـقْلَ الكَوَافِّ إما إلىٰ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من طرق جماعة من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وإما إلىٰ الصاحب، وإما إلىٰ التابع، وإما إلىٰ إمام أخذ عن التابع، يعرف ذلك مَنْ كان من أهل الـمعرفة بـهذا الشأن، والحمد لله رب العالـمين.

وهذا نقل خَصَّ الله تعالىٰ به الـمسلمين دون سائر أهل الـملل كلها، وأبقاه عندهم غَضًّا جديداً علىٰ قديم الدهور... يرحل في طلبه مَنْ لا يُـحصِي عددهم إلا خالقهم إلىٰ الآفاق البعيدة، ويواظب علىٰ تقييده مَنْ كان الناقد قريبًا منه، قد تولىٰ الله تعالىٰ حفظه عليهم، والحمد لله رب العالـمين، فلا تفوتـهم زلَّـةٌ في كلمة فما فوقها في شيء من النقل إنْ وقعت لأحدهم، ولا يـُمَكِّنُ فاسقًا أن يقحم فيه كلمة موضوعة، ولله تعالىٰ الشكر "(٢).

٦) وقال العلامة الـمحقق عبد الرحمن بن يحيىٰ الـمُعَـلِّمي اليـماني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت١٣٨٦هـ): " فأما السُّـنَّة فقد تكفل الله بحفظها أيضـًا، لأنَّ تكـفُّله بحفظ القرآن

(١) بحسـب شـهادة المستشـرق الإسـباني آسـين بلاسـيوس كمـا في [المنتقـىٰ مـن دراسـات المستشرقين (١/ ٢١٣) لصلاح الدين المنجد - ط / لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر - نشر دار الكتاب الجديد بلبنان]

(٢) [الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِّحَل (٢/ ٦٨ - ٦٩) مكتبة الخانجي بمصر]

يستلزم تكفُّله بحفظ بيانه وهو السُّنَّة، وحفظ لسانه وهو العربية، إذ المقصود بقاء الحجة قائمة، والهداية باقية، بحيث ينالها مَنْ يطلبها، لأنَّ محمداً خاتم الأنبياء، وشريعته خاتمة الشرائع، بل دَلَّ علىٰ ذلك قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾ [(القيامة: ١٩)]، فحفظ الله السُّنَّة في صدور الصحابة والتابعين حتىٰ كُتِبت ودُوِّنت... ومَنْ طالع تراجم أئمة الحديث من التابعين فمَنْ بعدهم، وتدبر ما آتاهم الله تعالىٰ من قوة الحفظ والفهم والرغبة الأكيدة في الجد والتشمير لحفظ السُّنَّة وحِياطَتِها؛ بان له ما يُحَيِّرُ عقله، وعلم أنَّ ذلك ثمرة تكفُّل الله تعالىٰ بحفظ دينه، وشأنهم في ذلك عظيم جداً " (١).

نعم؛ إنَّ قدسية الحديث النبوي عند أئمة الحديث وحفاظه ونقاده، والثقة بما فيه من وحي ربَّانيٍّ مبَيِّنٍ لأمور الدين والدنيا والآخرة دفعتهم لتشييد علم الحديث الذي ما سمعت الدنيا بمثله لأمة قبلهم، ولا لنبيٍّ قبل نبيِّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا يكون مثله لمَن يأتي بعدهم أبد الدهر، حيث أنشؤوا لذلك أُسساً وقواعد لحفظه وجمعه وتقسيمه وترتيبه وتبويبه استنبطوها من الكتاب والسُّنَّة، والقواعد العقلية القائمة علىٰ التحليل والتفكير، وعقدوا انسجاماً بين ذلك كله، ضمن ضوابط وآليات منهجية بهرت العقول، وسَجَّلَت عظمته ضمن أعظم وأدق العلوم البشرية علىٰ الإطلاق، حتىٰ إنَّ المستشرقين المهتمين بالتراث الشرقي قَضَوْا بالعجب من المنهجية التي سار عليها أئمة الحديث ونقاده في حفظ حديث رسول الله

---

(١) [الأنوار الكاشفة (ص ٣٣ – ٣٤) – ط / المطبعة السلفية ومكتبتها بمصر وعالم الكتب بلبنان].

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والاحتجاج به، فكان منهم المستشرق النمساوي شبرينجر القائل: " إنَّ الدنيا لم تَرَ ولن ترىٰ أمة مثل المسلمين، فقد دُرِسَ بفضل علم الرجال الذي أوجدوه حياة نصف مليون رجل " (١).

وهذا المستشرق اليهودي الإنجليزي مرجليوث أستاذ اللغة العربية بجامعة أكسفورد والشهير بعداوته للإسلام يسجِّل كلمة حقٍّ خضع لها قلبه وخَطَّها قلمه - بعد قراءته الواسعة في مصادر المسلمين الحديثية - فكتب معجباً بمنهج المحدثين الاستقرائي النقدي قائلاً: " ليفتخر المسلمون ما شاءوا بعلم حديثهم "(٢).

ونقل المؤرخ الدكتور أسد رستم أستاذ التاريخ الشرقي في الجامعة الأمريكية ببيروت - وهو نصراني لبناني - شهادته مسجلة بمزيد من الإعجاب والتقدير فقال في (الفصل السادس - العدالة والضبط): " ومما يُذكَر مع مزيد الإعجاب والتقدير ما توصل إليه علماء الحديث منذ مئات السنين في هذا الباب، وإليك بعض ما جاء في مصنفاتهم نُورِده بحروفه وحذافيره، تنويهاً بتدقيقهم العلمي، واعترافاً بفضلهم علىٰ التأريخ... " (٣)، ثم ذكر الشواهد من أقوال أئمة الحديث لتأييد ما قال.

---

(١) كما في [الإسناد من الدين (ص ٣٢ - الحاشية) لعبد الفتاح أبو غُدَّة - ط / مكتب المطبوعات الإسلامية بسوريا ودار البشائر الإسلامية بلبنان]

(٢) نقله عنه العلامة المحقق المُعَلِّمي اليماني في تقدمته لكتاب [الجرح والتعديل (١ / ٢) لابن أبي حاتم الحنظلي - ط / طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن بالهند ونشر دار إحياء التراث العربي بلبنان]

(٣) في كتابه [مصطلح التاريخ (ص ٨٠) - المكتبة العصرية بلبنان]

وبدلاً من الجدل البيزنطي، والـمعارضة والـمُلادَّة، والدخول في متاهات الظنون والأوهام الـسائـقة أصحابـها إلىٰ تعطيل العقائد والأحكام؛ يتوجب علىٰ كل منكر للسُـنَّة إنْ كان قرآنيًا حقًّا أن يـمتـثل أمر الله القائل: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾ (النحل ٤٣) ويسألَ علماءَ الحديث الـمعروفين بحفظه ودراسته: هل قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ هذا الحديث أم لا؟ فإن قالوا: نعم؛ فالواجب عليه تصديق ما قالوا والتَّـديُّنَ به، أو فَـلْيَتَـعَلَّمْ كيف يكون عالم حديث للبحث عن ذلك، والوصول إلىٰ تصديق ذلك، فله الحق في ذلك، فلكُلِّ عِلمٍ أصوله وقواعده ومعاييره الضابطة، إذ " التعلم غير محظور علىٰ أحد، ولا مخصوص به أحد " [١]، لا أن تأخذه خنزوانة الجاهلية فيتـعجل التكذيب فيكون مِـمَّنْ قال الله جَلَّ وعَزَّ فيهم: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾ (يونس ٣٩)، يُكَذِّب أحدهم بدون علم، وينكر بعقله حديث رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ لأنه لم يوافق ذوقه وهواه، مكرِّراً كالببغاء البلهاء ما يقوله الجاهلون الـمبطلون، فـيا هذا:

لا يَخْـدَعَنَّكَ عَـن دِيـنِ الهُـدَىٰ نَفَـرٌ ... لَـمْ يُرْزَقُـوا في التِمَـاسِ الحَـقِّ تَأْيِيـدَا

عُمْيُ القُلُـوبِ عَـرُوا عَـن كُـلِّ فائِـدةٍ ... لأَنَّهُــمْ كَفَــرُوا بِــاللهِ تَقْلِيــدَا

والـمسلم - من اسمه - ليس له إلا التسليم بـما جاء في عذاب القبر ونعيمه من نصوص قرآنية ونبوية، ولا يستقيم له هذا التسليم مع وجود منظومة فارغة من أسئلة التشكيك والاعتراض: لِـمَ؟ وكيف؟ وأين؟ وهل؟ والتماهي مع "لو" العقلانية

---

(١) كما قال الإمام أبو بكـر الصـولي في [أخبـار أبـي تـمَّام (ص ١٤) ت / بيـاتريس جرينـدلر - ط / المكتبة العربية بالإمارات]

الشيطانية لِـرَدِّ صرائح ما تدلُّ عليه النصوص القرآنية والنبوية !! فلو كان الدِّينُ بالعقل لَـمَا سَلِمَ لنا نصٌّ من نصوص الغيب من الانتقاد والتشكيك والتكذيب، وهذا ما لم يفعله الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ الذين كان موقفهم من جميع النصوص أنْ ﴿قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ﴾ (البقرة: ٢٨٥)، سائرين في ذلك علىٰ قاعدة: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ (آل عمران:٧)، قال الإمام الأوزاعيُّ رَحِمَهُٱللَّهُ (ت١٥٧هـ): " إذا بلغك عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حديث فإياك أَنْ تقول بغيره، فإنَّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان مُـبَلِّغـًا عن الله تعالىٰ " [١].

ولهذا؛ لم يُوجد في الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ مَنْ توقف أمام أحاديث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في عذاب القبر ونعيمه، ولا مَنْ قال: لـماذا لـم يذكر الله عذاب القبر في القرآن؟ ولا مَنْ عارَضَ القرآن والسُّـنة بعقله فقال: يوجد في أدلة القرآن والسُّـنة ما يتعارض مع العقل، فضلاً عن أن يقول: يجب تقديم العقل علىٰ النقل عند التعارض، ولا من قال: لا يؤخذ بظاهر الآية وينبغي تأويلها لأنَّ ظاهرها غير مراد !! أو هذا الحديث ضعيف لأنه يخالف العقل، بل تلَـقَّوْا كل ذلك بـ ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ﴾ (البقرة: ٢٨٥) [٢]، لأنـهم فهموا أنَّ السُّـنَّة وحي من الله كما قال ربنا جَلَّ وعَزَّ لنبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ﴾ (الأنعام:٥٠)، وعلىٰ هذا سار كل مَنْ تبعهم بإحسان، وأراد أن يلقىٰ الله صحيح الإيـمان.

---

(١) نقله عنه الإمام السيوطي في [مفتـاح الجنـة في الاحتجـاج بالسُّـنة (ص ٤٨) - ط / الجامعـة الإسلامية بالـمدينة الـمنورة بالسعودية]

(٢) وانظر [معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة (ص٩٤) مصدر سابق مع زيادة]

۞ القاعدة الرابعة عشر:

التكذيب والتشكيك بما نقلته الأمة عن نبيها صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في سُنَّته الصحيحة بحجة مخالفتها للعقل أو دخول التحريف عليها ما هو إلا اتباع للهوىٰ، وربُّنا جَلَّجَلَالُهُ يقول: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٠﴾ (القصص: ٥٠)، قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ (ت٧٥١هـ): " فقسَّمَ الأمر إلىٰ أمرين لا ثالث لهما: إما الاستجابة لله والرسول وما جاء به؛ وإما اتباع الهوىٰ، فكل ما لم يأتِ به الرسول فهو من الهوىٰ " [(١)].

فإذا لم يكن المسلم صاحب اتباع كان صاحب هوىٰ ولا بُدَّ، وإسلامه يأبىٰ عليه هذا، لأنه يحبُّ الله تعالىٰ، وإذاً؛ فَلْيَتَّبِعْ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فإنَّ اتباعه لرسول الله اتباع لله في الحقيقة، هذا ما نطق به الكتاب: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٣١﴾ (آل عمران: ٣١)، وصرحت به السُّنَّة في قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَىٰ اللهَ» رواه البخاري (٧١٣٧) ومسلم (١٨٣٥).

وإنَّ إنكار عذاب القبر ونعيمه وفتنته بحجة أنه غير مذكور في القرآن، وأنَّ الأحاديث التي أخبرت عنه آحاد أمر لا يجلب الشك بوقوعه بقدر ما يجلب اليقين بنبوة نبينا صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وصِدْقِ ما قال في عذاب القبر ونعيمه وفتنته، حيث أخبر

(١) [أعلام الموقعين (١/ ٣٧ - ٣٨) - ت محمد عبد السلام إبراهيم - ط/ دار الكتب العلمية]

عـمَّن سينكر سُـنَّته ويكتفي بالقرآن، وذلك في الحديث الذي رواه أحمد (٢٣٨٧٦) وأبو داود (٤٦٠٥) والترمذي (٢٦٦٣) والحاكم (٣٦٨) عن أبي رافع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مولىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَىٰ أَرِيكَتِهِ، يَأْتِيهِ الْأَمْرُ مِنْ أَمْرِي مِـمَّا أَمَرْتُ بِهِ وَنَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ: لَا نَدْرِي، وَمَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللهِ اتَّبَعْنَاهُ» وإسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين كما قال الحاكم وأقره الذهبي وغيره.

وبـما رواه أحمد (١٧١٩٤) - واللفظ له - وابن حبان (١٢) وابن ماجه (١٢) والخطيب البغدادي في الكفاية (ص ٢٣) عن الـمِقدامِ بن مَعْدِي كَـرِبَ الكِندي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: حرَّم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم خيبر أشياء ثم قال: «يُوشِكُ أَحَدُكُمْ أَنْ يُكَذِّبَنِي وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَىٰ أَرِيكَتِهِ يُحَدَّثُ بِحَدِيثِي فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللهِ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلَالٍ اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ، أَلَا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللهُ» (١).

وانظروا إلىٰ فقه علمائنا لهذا الحديث، فقد بَوَّبَ عليه الإمام ابن حبان (١/ ١٨٩) بقوله: " ذكر الخبر الـمُصَرِّحِ بأنَّ سنن الـمصطفىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلها عن الله لا من تلقاء نفسه "، وبَوَّبَ الحافظ الخطيب البغدادي (ص ٢٣) بقوله: " باب ما جاء في التسوية بين حكم كتاب الله تعالىٰ وحكم سُـنَّة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وجوب العمل ولزوم التكليف ".

هذا خبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي لا ينطق عن الهوىٰ، وقد حَذَّرَ أمته قبل وقوعه، فوقع كما أخبر ولا يزال!! فعافِنا اللهمَّ.

---

(١) انظر [السلسلة الصحيحة (٢٨٧٠) للألباني - ط / مكتبة الـمعارف بالسعودية]

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٢٤١هـ): " مَنْ رَدَّ حديثَ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فهو علىٰ شَفَا هَلَكَةٍ " (١).

وقال الإمام أبو محمد ابن حزم الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٤٥٦هـ): " ولو أنَّ امرءاً قال: لا نأخذ إلا ما وجدنا في القرآن لكان كافراً بإجماع الأمة " (٢).

وقال الإمام أبو بكر الآجُرِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٣٦٠هـ): " وكذلك جميع فرائض الله عَزَّوَجَلَّ التي فرضها الله في كتابه؛ لا يُعلم الحكم فيها إلا بسنن الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، هذا قول علماء المسلمين، مَنْ قال غير هذا خرج عن ملة الإسلام، ودخل في ملة الملحدين، نعوذ بالله تعالىٰ من الضلالة بعد الهدىٰ " (٣).

وكيف لمسلم أن يرد سُنَّةً ثابتة من سنن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ المنقولة بالإسناد الصحيح لرأي نفسه أو لرأي غيره؟ قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٢٠٤هـ): " أجمع الناس علىٰ أنَّ مَنِ استبانت له سُنَّة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لم يكن له أن يَدَعَهَا لقول أحد " (٤).

ونقل الإمام أبو عمر ابن عبد البر الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٣٦٤هـ) أنَّ أهل الفقه والأثر مجمعون علىٰ قبول أحاديث الآحاد في سائر أبواب الدين، ومنها الاعتقادية

---

(١) كما في [الفقيه والمتفقه (١/ ٢٨٩) للخطيب البغدادي - ت عادل بن يوسف العزازي - ط / دار ابن الجوزي بالسعودية]

(٢) [الإحكام في أصول الأحكام (٢/ ٨٠) مصدر سابق]

(٣) [الشريعة (١/ ٤١٢) - ت د. عبد الله بن عمر الدميجي - ط / دار الوطن بالسعودية]

(٤) كما في [إيقاظ همم أولي الأبصار (ص ٢٦١) لصالح الفُلَّاني - ت أبي عماد السخاوي - ط / دار الفتح بالإمارات].

فقال: " وكلهم يدين بخبر الواحد العدل في الاعتقادات، ويعادي ويوالي عليها، ويجعلها شرعًا ودينًا في معتقده، علىٰ ذلك جماعة أهل السُّنَّة، ولهم في الأحكام ما ذكرنا " (١)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٧٢٨هـ): " وهذه السُّنَّة إذا ثبتت؛ فإنَّ المسلمين كلهم متفقون علىٰ وجوب اتباعها " (٢)

أليس مَنْ فَرَّقَ بين سنته؛ فقَبِلَ متواترها وَرَدَّ آحادها قد كذَّب بالقرآن المصرح بطاعة الرسول دون قيد أو شرط؟

وإذا كان العقل قد قَبِلَ صدق الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآمن بوجوب طاعته في كل ما جاء به وأخبر عنه؛ فلا معنىٰ لإنكار وتكذيب أحاديث عذاب القبر ونعيمه وفتنة أهل القبور بالعقل، ولا يوجد لهذا الإنكار والتكذيب محل في الإيمان بمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيًا ورسولاً، فإنَّ إنكار حديث واحد كإنكار الأحاديث كلها، وتصديق حديث واحد يستلزم تصديق الأحاديث كلها، لأنَّ العقل الذي آمن هناك يجب عليه أن يؤمن هنا، وإلا فهو عقل مضروب مصاب بالهوىٰ، واتباع الهوىٰ يصد عن الحق، ومع مرور الأيام يصير إلهًا يُعبَد من دون الله كما قال الله سبحانه: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ (الجاثية: ٢٣).

إنَّ قبول السُّنَّة يتعلق بالإيمان برسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو عدمه، فكل مؤمن بمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيًا ورسولاً سيؤمِنُ بكل ما صَحَّ عنه فيما أخبر من عالم

---

(١) [التمهيد (١/ ٨) مصدر سابق]

(٢) [مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ٨٥ – ٨٦) جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه – ن/ مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالسعودية]

الغيب، فإنَّ هذا من لوازم الإيمان به، وبه يتبرهن اعتقاده بأنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صادق فيما يبلغه عن الله، أمين علىٰ هذا البلاغ.

وأما عدم قبول سُنَّته مع الإيمان به فلا يوجد إلا عند من جمع بين الشيء ونقيضه وهو يظن أنه علىٰ شيء وما هو علىٰ شيء، وهذا لعمرو الله من المستحيلات التي لا يُتَصَوَّرُ وجودها عند العقلاء، لأنَّ وجود أحدهما يستلزم نفي الآخر ولا بُدَّ، أما عقل المؤمن برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيـًا ورسولاً فحتمـًا سيصدقه فيما أخبر به من الغيبيات، محتكمـًا إليها، غيرَ واجد في نفسه حرجـًا من أحاديث الغيب الصحيحات، وأخبارها المقبولات، وناقليها الثقات الأثبات، مسلِّمـًا بكل ما فيها من العلم والحقائق المغيَّبات، قال الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ (ت٢٤١هـ) في بيان الموقف الشرعي فيما يُنقل عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أحاديث الغيب: " أحاديث صحاح نؤمن بها ونُقِرُّ، وكل ما رُوِيَ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بأسانيد جيدة نؤمن به ونُقِرُّ"(١).

وقال الإمام أبو عمر ابن عبد البر الأندلسي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت٣٦٤هـ): " فإنَّ ما صحَّ عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [يجب] أن لا يُضرب له الأمثال، ولا يدخل عليه المقاييس، ولا يؤمن عبد يجد حرجـًا في نفسه من قضاء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو العالم بمراد الله عَزَّوَجَلَّ، وبه علمنا ما علمنا، وإنما بُعِثَ إلىٰ أمته وهي لا تعلم شيئـًا، جزاه الله عنها بأفضل مما جزىٰ نبيـًا عن أمته " (٢).

---

(١) كما في [شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٥٦٢) لأبي القاسم اللالكائي - ت أحمد الغامدي - ط/ دار طيبة بالسعودية]

(٢) [الأجوبة المستوعَبة عن المسائل المستغرَبة من صحيح البخاري (ص ١٦٥) - ت عمرو عبد المنعم سليم - ط/ دار ابن القيم بالسعودية ودار ابن عفان بمصر]

ومسألة عذاب القبر ونعيمه إنما يفصل فيها نَصُّ الوحي لا العقل، فليس هذا مجال اختصاصه، والمؤمن المتبع لا يقدم رأيه بين يدي الله ورسوله، ولا يتبع الهوىٰ الهاوي بأصحابه، كقول بعضهم: " هل الذي يجلس بثلاجة الموتىٰ عشرات السنين يُعذَّب، ويدخل إليه الشجاع الأقرع، ومنكر ونكير إلىٰ الثلاجة؟ " و " فَكِّرْ في نفسك؛ هل من المعقول أنَّ ملاكًا اسمه منكر أو نكير؟ " وأمثالها من الأسئلة التي يبتدعها صنم الهوىٰ الجاثم علىٰ العقول المضروبة، ويحسب أصحابها أنهم يحسنون صنعًا !!

ليت شعري ! أين هم من قول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾(النساء: ٦٥)؟ قال الإمام أبو محمد ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٤٥٦هـ): " هذه كافية لـمَنْ عَقَلَ وحَذِرَ وآمن بالله واليوم الآخر، وأيقن أنَّ هذا العهد عهد ربه تعالىٰ إليه، ووصيته عَزَّوَجَلَّ الواردة عليه، فليفتش الإنسان عن نفسه؛ فإن وجد في نفسه مما قضاه رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كل خبر يصححه مما قد بلغه، أو وجد نفسه غير مسلمة لما جاءه عن رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووجد نفسه مائلة إلىٰ قول فلان وفلان، أو قياسه واستحسانه، وأوجد نفسه تُحَكِّمُ فيما نازعت فيه أحداً دون رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من صاحبٍ فمَنْ دونه؛ فليعلم أنَّ الله تعالىٰ قد أقسم - وقوله الحق - إنه ليس مؤمنًا، وصدق الله تعالىٰ، وإذا لم يكن مؤمنًا فهو كافر، ولا سبيل إلىٰ قسم ثالث " (١).

---

(١) [الإحكام في أصول الأحكام (١/ ٩٩) مصدر سابق]

لقد كشفت مسألة عذاب القبر ونعيمه عن فريقين من الناس تجاهها :

١) فريق مَنْ قال: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ (البقرة: ٢٨٥) فآمنوا بكل ما جاء به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخبر عنه من عالم الغيب، مصدِّقين غير مرتابين.

٢) فريق مَنْ قال: اشتَرِطُ في الإيـمان بكل ما جاء به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخبر عنه من عالم الغيب والشهادة عدم الـمعارض العقلي.

فأيُّ الفريقين أسعد برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إيـمانـًا؟ وأيُّـهما أكمل عقلاً وأشرح صدراً وأهدىٰ سبيلاً ؟ وأيُّ الفريقين أقرب إلىٰ الهوىٰ اتباعـًا؟ وأيُّهما أَسْلَكُ إلىٰ طريق الكفر إلحاداً؟

الذين آمنوا مصدقين غير مرتابين لهم كمال الإيـمان والعقل وانشراح الصدر والهدىٰ، وهم أبعد الفريقين عن الهوىٰ والإلحاد والكفر، وبالوحيين - لا بالعقل - هم مهتدون.

قال العلامة مـحمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ (ت١٣٥٤هـ): " ولا أقبح من الجدل في أمر الآخرة الذي لا مجال للعقل ولا للحس فيه، والذين فتحوا هذا الباب هم الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعـًا " (١).

فيا مَنْ يدَّعي حُبَّ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والإيـمان به ومعرفته؛ هذه سنته وآثاره ووصاياه محفوظة مبينة، فخذها وتـمسَّك بـها، وعُضَّ عليها بالنواجذ، فقد كثُر الصادُّون عن سبيل الله، ودخلت الفتن كل حاضرة وبادية، وتزخرف الباطل واشتبه بالحق، وفُرِضَ الكُفرُ باسم حرية الفِكرِ، وما إن يخرج الناس من فتنة حتىٰ يدخلوا في

---

(١) [مجلة الـمنار (٨/ ٢٥٦)]

فتنة أخرىٰ هي أشد من أختها وأكثر اختلافًا، وهذا عين ما أخبر عنه النبي ﷺ حيث كشف الداء والدواء معًا بقوله: «**فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَىٰ اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**» رواه أبو داود (٤٦٠٧) وأحمد (١٧١٤٥) وغيرهما، وهو صحيح .

۞ القاعدة الخامسة عشر:

جعل الله عَزَّوَجَلَّ إيمان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ميزانًا يُعرف به إيمان الناس، وفهمهم للدين معياراً تُمتحن به أفهامهم، فالهداية لمَنْ آمن بمثل ما آمنوا به، والضلال والشقاق علىٰ مَنْ خالفهم وتولىٰ عنهم وتنكَّبَ ما كانوا عليه، قال الله مشترطًا تحقق الهداية بتحقيق الإيمان بمثل إيمانهم: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ﴾ (البقرة : ١٣٧) ولا شك أنَّ المطلوب كيفية ما كانوا عليه من الإيمان والمنهج لا كميته فهذا مما لا سبيل إلىٰ دَرْكِهِ، ولا شك أن امتداح إيمانهم امتداح لفهمهم، وأنَّ ذلك ما أراده الله منهم.

فلا هداية في الاعتقاد والعلم والعمل والأخلاق والسلوك في شيء من مناهج البشر أمسِ واليوم وغداً ما لم تكن بمثل ما كان عليه الرعيل الأول، والطراز الرباني، بل مصير ذلك إلىٰ الشقاق حتمًا، والشقاق باقٍ ما بقي الإعراض عما كان عليه الصحابة من الإيمان في كل شيء، ومنه مسألة عذاب القبر ونعيمه، فسبيلهم هو السبيل الذي لا يقبل الله غيره، وإجماعهم حجة علىٰ سائر الناس، وهم المؤمنون الذين عناهم الله بقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ (النساء ١١٥)، وقَرْنُهُم

خير القرون بشهادة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتزكيته لهم بقوله في الحديث الصحيح المتفق عليه عند البخاري (٢٦٥٢) ومسلم (٢١٢): «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ...»، وهذه الخيرية ليست خيريةَ زَمَنٍ وتاريخٍ، بل خيرية منهجٍ تشمل جميع أبواب الدين من الاعتقادات والعبادات والمعاملات والأخلاق، خيرية الفهوم والعلوم والأعمال التي كانوا عليها، فما خالفها شَرٌّ لا خير فيه.

ولو لم يكن ما عليه الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ من الإيمان والعلم والعمل هو المحك الحقيقي لِمَنْ جاء بعدهم؛ لما بقي للإسلام بقية، ولتفرق بين آراء الناس ورغباتهم وما تُمليه عقولهم وشهواتهم، وصار قابلاً للثني والطي، والزيادة والنقصان، والتأويل والتحريف.

وحيث إنَّ الله جعلهم واسطة بين نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين أمته؛ فكان من الواجب علىٰ كل مؤمن أن يحترم نفسه، ولا يغتر بعقله فيُلغِيَ ما عليه رجالات الأمة وقدواتها الممدوحين المصطفين الأخيار من أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أبواب الدين، مُتَّخِذاً لنفسه ديناً غير ما عليه كانوا، ومنهجاً في نصوص الوحيين غير ما نهجوا، وسلوكاً غير ما سلكوا، وفهماً غير ما فهموا، فإنْ فعل فقد ضَلَّ ضلالاً بعيداً، وكان من الخلوف المخالفين الذين عناهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ، وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ» رواه ومسلم (٨٠) وأحمد (٤٣٧٩) - وهذا لفظه -.

ودونكم مقالة عارف بالصحابة وما كانوا عليه - وهو واحد منهم - قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "مَنْ كان منكم مؤتسياً فليأتَسِ بأصحاب محمَّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

فإنـهـم كانوا أبر هذه الأمة قلوبـًا، وأعمقها علمـًا، وأقلها تكلفـًا، وأقومها هديـًا، وأحسنها أخلاقـًا، اختارهم الله تعالىٰ لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، فإنـهـم كانوا علىٰ هدىٰ مستقيم " (١)

وإن أردتّـم أن تعرفوا لِـمَ كانوا كذلك؟ فإليكم هذا التعليل الكاشف لحقيقة ما كان عليه الصحابة، قال الإمام ابن قَيِّمِ الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٧٥١هـ): " لِـمَا خصَّهم الله تعالىٰ به من توقد الأذهان، وفصاحة اللسان، وسعة العلم، وسهولة الأخذ، وحسن الإدراك وسرعته، وقلة الـمعارض أو عدمه، وحسن القصد، وتقوىٰ الرب تعالىٰ، فالعربية طبيعتهم وسليقتهم، والـمعاني الصحيحة مركوزة في فطرهم وعقولهم" (٢).

وقال الإمام أبو إسحاق الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٧٩٠هـ): " السلف والخلف من التابعين ومَنْ بعدهم يهابون مخالفة الصحابة ويتكثرون بـموافقتهم... وما ذاك إلا لـما اعتقدوا في أنفسهم وفي مخالفيهم من تعظيمهم، وقوة مآخذهم دون غيرهم، وكبر شأنـهم في الشريعة، وأنـهم مما يجب متابعتهم وتقليدهم، فضلاً عن النظر معهم فيما نظروا فيه " (٣).

ومن قبلهما قال الإمام الحافظ الحجة أبو مـحمد ابن أبي حاتم الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٣٢٧هـ): " فأما أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهم الذين شهدوا الوحي

---

(١) كما في [ذَمِّ الكلام وأهله (٤/ ٢٨٨) لأبي إسـماعيل الأنصـاري الهـروي - ت عبـد الـرحمن الشبل - ط/ مكتبة العلوم والحكم بالسعودية]

(٢) [أعلام الـموقعين (٤/ ١١٣) مصدر سابق]

(٣) [الـموافقات (٤/ ٤٥٧) مصدر سابق]

والتنزيل، وعرفوا التفسير والتأويل، وهم الذين اختارهم الله عَزَّوَجَلَّ لصحبة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونصرته، وإقامة دينه، وإظهار حقه، فَرَضِيَهُم له صحابة، وجعلهم لنا أعلامًا وقدوة، فحفظوا عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما بلغهم عن الله عَزَّوَجَلَّ، وما سَنَّ وشرع، وحكم وقضىٰ، وندب وأمر، ونهىٰ وحظر وأدَّبَ، ووعوه وأتقنوه، ففقهوا في الدين، وعلموا أمر الله ونهيه ومراده بمعاينة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومشاهدتهم منه تفسير الكتاب وتأويله، وتلقفهم منه واستنباطهم عنه، فشرفهم الله عَزَّوَجَلَّ بما مَنَّ عليهم وأكرمهم به من وضعه إياهم موضع القدوة، فنفىٰ عنهم الشك، والكذب، والغلط، والريبة، والغمز، وسمَّاهم عدول الأمة، فقال عَزَّ ذكره في محكم كتابه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [(البقرة : ١٤٣)]، ففسَّرَ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الله عَزَّ ذكره قوله ﴿وَسَطًا﴾ قال: " عدلاً "، فكانوا عدول الأمة، وأئمة الهدىٰ، وحجج الدين، ونقلة الكتاب والسنة " (١).

فهل أنت يا هذا مثلهم؟ وإلا:

فَدَعْ عَنكَ الكِتابَةَ لَستَ مِنها ... وَلَوْ سَوَّدتَّ وَجْهَكَ بِالمِدادِ

ونصوص الشرع لا بُدَّ لها من فهم، وفهمها يكون من جهة قارئيها وسامعيها، ولأنَّ القراء والسامعين متفاوتون في الفهم والإدراك، وجودة القريحة، وصفاء الذهن، والمعرفة بالألفاظ ومراتبها؛ فَسَتَتَعَدَّدُ فهوم هذه النصوص، سيكون للنص الواحد فهوم متعددة متباينة تجعل فاهِميها متنازعين مختلفين متفرقين، وهذا ما لا يريده مُنزِلُ النص، فكان منه أنْ دَلَّ عباده علىٰ مَنْ له أهلية الفهم الصحيح لنصوصه

---

(١) [الجرح والتعديل (١/ ٧) مصدر سابق]

بالتنصيص علىٰ تزكيتهم، وامتداح إيمانهم ومنهجهم الديني، ونَوَّعَ ذلك في نصوص وَحْيَيْهِ القرآن والسُّنَّة بما يدل علىٰ أصالته عنده، وما سبق ذكره من نصوص سابقة في الصحابة كافٍ لمن آمن بها، واحترم قدسيتها وحجيتها.

وهذا يؤكد لنا ضلال مَنْ قالوا: معنا مثل ما مع الصحابة من الرأي والعقل والفهم!! فلماذا نتقيد بفهمهم للنصوص، ومنهجهم في التلقي والاستدلال؟

وبفهم هذه القاعدة والدينونة بها تنزهق تلك الأصوات النشاز التي خرجت مؤخراً تدعو إلىٰ التفريق بين الإسلام الرسالة والإسلام التاريخ !! جاعلة الإسلام الذي كان عليه الصحابة مرحلة تاريخية لا تصلح للتطبيق، وقابلاً للتغير والتبدل، معللة بأنه لا يوجد إسلام نموذجي حقيقي، ولكل أحد تصوره المختلف عن الإسلام، وله طريقته الخاصة في فهمه وممارسته !! فأيُّ ضلال يدعو إليه هؤلاء؟! وبالله المستعان.

۞ القاعدة السادسة عشر:

الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كلهم عدول، وهذا من الدين معلوم بالضرورة، ومن قطعيات العقيدة عند المسلمين العقلاء، ومجمع عليه بين العلماء، ومتقرر لدىٰ كافة الفقهاء، ولم يَشُذَّ عنهم إلا أهل الأهواء، وذَوُو النِّحَلِ العوجاء.

وقد جاءت الآيات مقرِّرةً تعديل الله لهم وتزكيتهم والترضي عنهم، فمن الآيات قوله جلَّ وعزَّ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ (التوبة ١٠٠) ولا يرضىٰ ربُّنا إلا عن

عُدُولٍ خِيارٍ، بدليل قوله الآخر سبحانه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٩٦﴾(التوبة:٩٦) فلو كانوا فسّاقاً لَـمَا رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ، ولَمَا كانوا عدولاً.

وقوله جَلَّجَلَالُهُ: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ١٨﴾ (الفتح : ١٨) وهذه شهادة تعديل منه سبحانه، وكفىٰ بالله شهيداً، قال الإمام أبو مـحمد ابن حزم الأندلسي رَحِمَهُٱللَّهُ (ت٤٥٦هـ): " فمَنْ أخبرنا الله عَزَّوَجَلَّ أنه علم ما في قلوبـهم رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ وأنزل السكينة عليهم؛ فلا يحل لأحد التوقف في أمرهم، ولا الشك فيهم البتة. لقد خاب وخسر مَنْ رَدَّ قول ربه عَزَّوَجَلَّ أنه رضي عن الـمبايعين تحت الشجرة، وعلم ما في قلوبـهم فأنزل السكينة عليهم " (١).

وللنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في تعديل الصحابة ووجوب قبول ما نقلوه من الدين أحاديث كثيرة مشهورة، منها قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَىٰ السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَىٰ أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَىٰ أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ» رواه مسلم (٢٥٣١)، فإذا كان وجود النجوم ضرورياً لبقاء السماء آمنة من التغير والهلاك؛ فوجود الصحابة في الأمة أمان لبقاء الدين قائماً، والحق ظاهراً، والكلمة جامعة، وبذهابـهم تتغير أحوال الأمة فتتفرق كلمتها، وتفشو البدع والأهواء، وتكثر الفتن، وكل هذا حصل، ويزول كل ذلك بالرجوع إلىٰ ما كانوا عليه. وللإمام ابن قَـيِّم الجوزية رَحِمَهُٱللَّهُ (ت٧٥١هـ) عند هذا الحديث تقرير حسن في وجوب الاهتداء بـما كان عليه

(١) [الفِصَل في الـملل والأهواء والنحل (٤/ ١١٦ – ١١٧) مصدر سابق]

الصحابة، قال: " ومن الـمعلوم أن هذا التشبيه يعطي من وجوب اهتداء الأمة بـهم ما هو نظير اهتدائهم بنبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونظير اهتداء أهل الأرض بالنجوم، وأيضـًا فإنه جعل بقاءهم بين الأمة أمنة لهم، وحرزاً من الشر وأسبابه " (١).

وروىٰ عبد الرزاق الصنعاني (٢٠٧١٠) وعنه عبد بن حميد (٢٣) عن عبد الله بن الزبير أنَّ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قام بالجابية (قرية قرب دمشق) خطيبـًا فقال: إنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قام فينا مقامي فيكم فقال: «أَكْرِمُوا أَصْحَابِي؛ فَإِنَّهُمْ خِيَارُكُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَظْهَرُ الْكَذِبُ...» وهو حديث صحيح مشهور، نقله عن عمر غير واحد.

والحديث خطاب للأمة لتعرف قدر الصحابة وأنـهم أفضل هذه الأمة دينـًا، وقد شملت هذه الخيرية عامتهم، ومن الـمعلوم أنَّ خيار كل أمة هم قدواتـها، وخيار الـمسلمين الصحابة، ومَنْ جعل الصحابة في التعديل كغيرهم مِـمَّنْ يأتي بعدهم فقد أبطل اختصاص وصفهم بالخيرية، وجعلهم وغيرهم سواءً، وما أبعد هذا عن الـموضوعية كما يقال ! وأشنِـعْ به من قولٍ يَـدَّعِي التجرد والعدل والإنصاف ! والله حسيب كل مُـتَجَـرِّئٍ علىٰ الصحابة (٢).

وخَـرَّجَ البخاري (١٠٥) ومسلم (١٦٧٩) وابن حبان (٥٩٧٤) عن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خطبته في أكثر من مائة ألف من الصحابة حضروا معه

---

(١) [أعلام الـموقعين (٤/ ١٠٥) مصدر سابق]

(٢) وانظر [منيف الرتبة لـمن ثبت له شريف الصـحبة (ص ٧٢) لابـن كيكلـدي العلائـي - ت د. عبد الرحيم مـحمد القشقري - ط / دار العاصمة بالسعودية]

حجة الوداع أنه قال: «أَلاَ لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمُ الغَائِب» قال الإمام ابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٣٥٤هـ) معلقـًا: " وفي قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلاَ لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ مِنْكُمُ الغَائِب» أعظم الدليل علىٰ أنَّ الصحابة كلهم عدول ليس فيهم مجروح ولا ضعيف، إذ لو كان فيهم مجروح أو ضعيف، أو كان فيهم أحد غير عدل لاستثنىٰ في قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال:" ألا ليبلغ فلان وفلان منكم الغائب " فلما أجملهم في الذكر بالأمر بالتبليغ مَنْ بعدهم؛ دَلَّ ذلك علىٰ أنهم كلهم عدول، وكفىٰ بمَنْ عَدَّلَهُ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شرفًا " (١).

وما أجود ما قاله الحافظ الخطيب البغدادي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٤٦٣هـ) في عدالة الصحابة: " والأخبار في هذا المعنىٰ تتسع، وكلها مطابقة لِمَا ورد في نص القرآن، وجميع ذلك يقتضىٰ طهارة الصحابة، والقطع علىٰ تعديلهم ونزاهتهم، فلا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله تعالىٰ لهم المطلع علىٰ بواطنهم إلىٰ تعديل أحد من الخلق له... علىٰ أنه لو لم يرد من الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله فيهم شيء مما ذكرناه لأوجبت الحال التي كانوا عليها من الهجرة والجهاد والنصرة، وبذل المُهَج والأموال، وقتل الآباء والأولاد، والمناصحة في الدين، وقوة الإيمان واليقين القطعَ علىٰ عدالتهم، والاعتقادَ لنزاهتهم، وأنهم أفضل من جميع المعدَّلِين والمُزَكَّين الذين يجيؤون من بعدهم أبد الآبدين، هذا مذهب كافة العلماء، ومَنْ يعتد بقوله من الفقهاء " (٢).

---

(١) [الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١/ ١٦٢) بترتيب ابن بلبان الفارسي - ت شعيب الأرناؤوط - ط / مؤسسة الرسالة بلبنان]

(٢) [الكفاية في علم الرواية (ص ٤٨) - ت أبو عبدالله السورقي وصاحبه - ط / المكتبة العلمية بالسعودية]

وقال الحافظ أبو عمرو ابن الصلاح الشَّهْرَزَوْرِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٦٤٣هـ): " للصحابة بأسرهم خِصِّيصَةٌ وهي: أنه لا يُسأل عن عدالة أحد منهم، بل ذلك أمر مفروغ منه، لكونهم علىٰ الإطلاق مُعَدَّلِينَ بنصوص الكتاب والسُّنَّة، وإجماع مَنْ يُعتَدُّ به في الإجماع من الأمة " (١)

ونحن نعلم أنَّ عدالة الصحابة لا تقتضي عصمتهم، ولا استحالة وقوع المعصية من آحادهم، فهم كغيرهم من البشر، يخطئون ويصيبون، ويعصون ويطيعون، ولكن شتَّان بين قوم نَصَّ الله أحكم الحاكمين علىٰ تزكيتهم وعدالتهم، وأهليتهم للشهادة والتبليغ وبين غيرهم ممَّنْ لم يَنَلْ هذه الأمور، فقد كفانا الله البحث عن عدالتهم.

وقد تفطَّن الصحابة لمثل هذه الطعون الجائرة الجاهلة بأقدارهم فأشاروا إلىٰ براءتهم من صفة الكذب علىٰ الله ورسوله القادحة في العدالة، وتميزهم بأمانة وصدق التبليغ عن الله ورسوله، قال البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: " ما كل ما نحدثكم عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمعناه من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن سمعناه، وحدثنا أصحابنا، ولكنا لا نكذب " (٢)

وحَدَّثَ أنس بن مالك الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بحديث عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال رجل: سمعتَهُ من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فغضب غضباً شديداً وقال:

---

(١) [معرفة أنواع علوم الحديث (ص ٣٩٧) – ت نور الدين عتر – ط / دار الفكر بسوريا ودار الفكر المعاصر بلبنان]

(٢) كما في [العلل ومعرفة الرجال للإمام أحمد بن حنبل – برواية ابنه عبد الله (برقم ٢٨٣٥) – ت وصي الله بن محمد عباس – ط / دار الخاني بالسعودية]

" والله ما كل ما نحدثكم سمعناه من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن كان يحدث بعضنا بعضاً، ولا يتهم بعضنا بعضاً " (١).

تُرىٰ؛ لو كانوا كاذبين أكانوا يقولون عن أنفسهم هذه الحقيقة التي لا يعلمها الطاعنون أنفسهم؟ وناهيك بـهذه الثقة التي كان الصحابة يتبادلونـها فيما بينهم، وكيف كان الصدق رأس دينهم، ومنهج تعاملهم؟ فبه أقاموا الإسلام، ونالوا تعديل الـملك العلَّام، واصطفاءهم علىٰ جميع الأنام.

ولأنـهم نقلة الشريعة كلها قرآنـها وسُـنَّتها التي ما عرفتهما الأمـة إلا بواسـطتهم؛ اقتضىٰ هذا عدالتهم ونزاهتهم، وإلا فسـقوط عـدالتهم يعني سـقوط الشـريعة، وإذا سقط الناقل سقط الـمنقول، وأدَّىٰ ذلك إلىٰ انحلال الشريعة، ولا مؤمن قائل بـهذا.

وقد علمنا قبلُ أن الله جَلَّ وَعَلَا قد تكفَّل بحفظ دينه، ولا بد للحفظ من وسيلة، فاصطفىٰ الله الصحابة كوسيلة لهذه الـمهمة الجليلة وشَـرَّفهم بها، فكيف لا يكونون أهل عدالة وأمانة صالحين لذلك؟ كيف والأصل في الـمسلم العدالة؟! والصحابة أول مسلمي هذه الأمة، وقد خَصَّهُمُ الله دون غيرهم بزيادة علىٰ العدالة: التنصيص علىٰ ألقابـهم الشرعية (**الـمهاجرين والأنصار**)، والتزكية لحالهم، والترضية عنهم، والتوبة عليهم، وجعل ذلك قرآنـاً يُتلىٰ إلىٰ يوم القيامة، ليكون ذلك هداية للمؤمنين، وحجة علىٰ الناس أجمعين.

ولهذا؛ لا يطعن في عدالة الصحابة إلا رجل سوء كما قال الإمام الحافظ الجِهْبِذُ النقَّاد أبو زرعة الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت٢٦٤هـ): " إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من

---

(١) نقله الحافظ القاضي أبو الوليد الباجي الأندلسي رَحِمَهُ اللَّهُ في [التعديل والتجريح لـمن خرَّج له البخاري في الصحيح (١/ ٣٩٠) - ت د. أبو لبابة حسين - ط / دار اللواء بالسعودية]

أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاعلم أنه زنديق، وذلك أنَّ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدَّىٰ إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسُّنَّة، والجرح بهم أولىٰ، وهم زنادقة " (١).

وقال الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ (ت١٧٩هـ) فيمن قدح في الصحابة:" إنما هؤلاء قوم أرادوا القدح في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلم يمكنهم ذلك، فقدحوا في أصحابه حتىٰ يقال: رجل سوء، كان له أصحاب سوء، ولو كان رجلاً صالحًا كان أصحابه صالحين !! " (٢).

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت٢٠٤هـ): " ومَنْ قَصَدَ الصحابة أبغض النبيَّ، ومَنْ أبغض النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كفر بالله العظيم " (٣).

وقال الإمام أبو عبد الرحمن النسائي صاحب السنن رَحِمَهُ اللَّهُ (ت٣٠٣هـ): " إنما الإسلام كدار لها باب، فباب الإسلام الصحابة، فمن آذىٰ الصحابة إنما أراد الإسلام، كمن نقر الباب إنما يريد دخول الدار " (٤).

---

(١) كما في [الكفاية في علم الرواية (ص ٤٩) مصدر سابق]

(٢) كما في [الصارم المسلول علىٰ شاتم الرسول (٣/ ١٠٨٨ - ١٠٨٩) لشيخ الإسلام ابن تيمية - ت محمد محي الدين عبد الحميد - ط / الحرس الوطني السعودي بالسعودية]

(٣) كما في [طبقات الحنابلة (١/ ١٣) لابن أبي يعلىٰ البغدادي - ت محمد حامد الفقي - ط / دار المعرفة بلبنان]

(٤) كما في [تهذيب الكمال (١/ ٣٣٩) للمِزِّي - ت: د. بشار عواد معروف - ط / مؤسسة الرسالة بلبنان]

وقال فخر الأندلس الإمام أبو محـمد ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٤٥٦هـ): " فَرْضٌ علينا توقيرهم وتعظيمهم، وأن نستغفر لهم ونحبهم، وتـمرة يتصدق بـها أحدهم أفضل من صدقة أحدنا بـما يـملك، وجلسة من الواحد منهم مع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أفضل من عبادة أحدنا دهره كله " (١).

وليعذرني القارئ الكريم علىٰ إطالة الكلام في هذه القاعدة، فإنَّ الكلام يُـطَوَّل لـيُفهَم، ويُـختصَر لـيُحفَظ كما قال إمام العربية في زمانه الخليل بن أحمد الفراهيدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت١٧٠هـ)، وقد تُـنُوسِيَ العلم، وكثر القيل والقال، وخاض الخائضون، وتآمر المجرمون، وظهر الرويبضات، وأعجب كل ذي رأي برأيه، وتجدَّد الطعن في الصحابة لإسقاط ما رَوَوْهُ من أحكام الدين وعقائده، والتبري من منهجهم في فقه النصوص الداعي إلىٰ عَـقْـلَـنَـتِـهَا، لأنَّ الطاعنين يعلمون أنَّ لازم القول بعدالتهم يوجب قبول الأحكام الدينية التي نقلوها للأمة، وآلية تعاملهم معها، وفي ذلك ما يهدم مذاهبهم، ويُبطِل بدعهم، ويكشف انحرافاتـهم، وينكِّسُ راياتـهم، فإذا طعنوا فيهم سقط ما نقلوه وفهموه، وخلا لهم الجوُّ بإحداثِ دينٍ غيرِ ما كان عليه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وصحابته رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وما لم يكن يومئذٍ دينـًا فليس اليوم بدين.

وتقريراً لـما سبق؛ فَلْنَختِمْ هذه القاعدة بالقول:

إذا صَحَّ وحَسُنَ اعتقادنا في عدالة الصحابة صَحَّ لنا الإسلام الذي نحن عليه، وإذا ساء وفسد اعتقادنا في عدالة الصحابة فلا حظَّ لنا في الإسلام، لأنه يكون سقط

(١) [الإحكام في أصول الاحكام (٥/ ٨٩) مصدر سابق]

بسقوطهم، ولم يبقَ لنا منه شيء، إذ سقوط الناقل يستلزم سقوط الـمنقول، فهل يوجد عاقل يقول بـهذا ويعي ما يخرج من رأسه؟

۞ القاعدة السابعة عشر:

الوثوق بعدالة الصحابة أساس للوثوق بكل ما نقلوه عن الله ورسوله، فقد ائتمنهم الله علىٰ نقل كتابه الكريم؛ أفلا يأتـمنهم علىٰ نقل سُـنَّة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ سواءً كانت آحادية أو متواترة؟ لأن الكل وحيٌ من الله، والآحاد والـمتواتر داخل في عموم قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧﴾ (الحشر: ٧)، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦﴾ (الأحزاب: ٣٦)، فلا يختار الـمؤمنون بعقولهم وآرائهم شيئًا فيقدمونه علىٰ قضاء الله ورسوله، بل سمعٌ وطاعةٌ كما قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥١﴾ (النور: ٥١).

فبالله عليكم؛ ماذا نسمِّي مَنِ اتبع غير سبيل الـمؤمنين، وسَـفَّهَ علماء الأمة ومحدِّثيها، وأنكر إجماعها - وهي لا تجتمع علىٰ ضلالة -، وأفسدت الشبهات إيـمانه، وشَـوَّشَت عليه توحيده، وجعلته في تناقض مع دينه؟! إذ كيف قَبِلَ ما نقله الصحابة عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من شرائع الدين كالصلوات الخمس ومقادير الزكاة ومناسك الحج وأحكام الصوم وغيرها مما لا يوجد في القرآن تفاصيل أحكامه وشرائعه وآدابه فآمن بـها وصَدَّقها وكثير منها آحاد؛ وعند أحوال القبور وما يجري

لأهلها من عذاب أو نعيم يقف مستنكراً روايتهم لها، ويَرِدُّ أحاديثها لأنـها ما دخلت عقله ! مع أنَّ ناقل هذه وتلك واحد، وهم الصحابة !!!

وأيُّ عجبٍ أعجب من حال القائلين بـمنع قبول حديث الآحاد في العقائد، وأنه يوجب العمل لا العلم وهم يرددون عند كل تشهد في صلاتـهم ما أمر به نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من التعوذ من أربع – ومنها عذاب القبر – بقوله: «**إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ، يَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ**» روياه في الصحيحين البخاري (١٣٧٧) ومسلم (٥٨٨) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سيتعجب العاقل منهم وهم يرددون هذا الدعاء في صلواتـهم بدون اعتقاد بوقوع عذاب القبر !!! وكيف لـمسلم يرىٰ وجوب العمل بحديث من أحاديث نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم لا يعتقد ما فيه؟! فما فائدة التعوذ إذن؟! يستحيل قبول هذا عند إنسان له قلب يعقل، وأذن واعية.

ألا يستحي الطاعنون في صحابة رسول الله وهم السبب في إسلامهم؟ وهل تعلَّمُوا شرائع الدين وعقائده إلا ببلاغهم وتعليمهم؟ أليس كل خير حصل لهذه الأمة، وجميع الأجور والحسنات التي يعملها ويدَّخرها كل مسلم ومسلمة في صحائف أعمالهم تذهب رأساً إلىٰ ميزان حسنات الصحابة، إذ كانوا سبب وجودها وتحصيلها؟ وهيهات أن يطول فضلهم أحد وقد حازوا ثواب كل عمل صالح بعدهم إلىٰ يوم القيامة، فكانوا أكثر الأمة أجوراً وحسنات بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الحافظ أبو سعيد خليل بن كَيْكَلْدِي العلائي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت٧٦١هـ): " فلا خير إلا وقد

سبقوا إليه مَنْ بعدهم، ولا فضل إلا وقد استفرغوا فيه جهدهم، فجميع هذا الدين راجع إلىٰ نقلهم وتعليمهم، ومتلقَّىٰ من جهتهم بإبلاغهم وتفهيمهم، فلهم مثل أجور كل مَنِ اهتدىٰ بشيء من ذلك علىٰ مر الأزمان، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء بالطَّوْلِ والإحسان " (١).

ومما يزيد المؤمن ثقة بما نقله الصحابة عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ كمال الدين الذي نَصَّ الله جَلَّ أمره عليه بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ (المائدة: ٣) يقتضي أن يكون مبلِّغُهُ مؤتمنًا كاملاً في خلقه وعقله وتدينه، فإن الدين الكامل المنزَّل من الكامل جَلَّ وعَزَّ لا يبلِّغُهُ من البشر إلا الكامل صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا بد أن يَبْلُغَ كماله إلىٰ الناس، وهذا يقتضي نجاح أتباع الكامل رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ في تبليغ دينه الكامل، وإنجاح المهمة التي بعث الله نبيه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أجلها، إذ كيف يكون كاملاً والناقل (الصحابة) لهذا الكمال مطعون فيهم؟! كيف يظهر للناس كمال الدين ومُبَيِّنُ هذا الكمال (الرسول صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لا يوجد له كلمة واحدة محفوظة يتناقلها الناس عنه؟! هذا لا يقوله إلا مَنْ خرج من كل عقل ودين !! بل بهذا يتحقق ما وعد الله به من إظهار دينه علىٰ الدين كله ولو كره المشركون، كما أنه يحقق حفظ السُّنَّة وعدم الخوف من ضياعها واختلاطها بأحاديث البشر وكذب الزنادقة، ويحقق أيضًا عدالة الصحابة، وسلامة ما نقلوه.

---

(١) [منيف الرتبة (ص ٢٩) – مصدر سابق]

ولهذا كانت آية الـمائدة الـنَّاصَّة علىٰ كمال الدين أشدَّ آية قرآنية علىٰ أهل الأهواء والبدع، وعلىٰ كل منحرف وزائغ عما كان عليه النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته من كمال الدين، وما لم يكن علىٰ عهدهم دينًا فليس اليوم بدين.

أَلَا إنه لا يوجد في الدنيا حديث أصحُّ إسناداً إلىٰ قائله في بني آدم كلهم من حديث نبينا صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا أصدق لسانًا، ولا أعدل حالاً، ولا أحسن دينًا من صحابته رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ

۞ القاعدة الثامنة عشر:

إجماع الصحابة مصدر تشريعي قائم، وحجة باقية، ويَـتَـوَجَّـبُ علىٰ كل مؤمن ومؤمنة رَضِيًا بالله ربـًا، وبالإسلام دينـًا، وبـمحمد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نبيـًا أن لا يقولا بقول يخالف ما أجمع عليه أصحاب النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سواء ما أجمعوا عليه في الاستدلال ومصدر التلقي (التسليم لنصوص الكتاب والسُّـنَّة وطريقة الاستدلال بـهما)، أو ما أجمعوا عليه في مسائل الدين (عقائد وأحكام)، وإنَّ الانحراف عن أحدهما أو كليهما موجب للوقوع في الضلال كما هو معروف قديـمـًا وحديثًا.

هذا الوجوب ليس اختياريـًا، ولا يخضع للـمزاج، ولا يقبل بالتنازل عن الثوابت لـمتغيرات العصر ومعطياته الحديثة، وما تفرضه العولـمة الغربية وفلسفاتـها الإلحادية في ظل هيمنتها الثقافية، كما أنه لا يدعو إلىٰ مصادرة العقل وإلغاء دوره، وتثبيته في حالة عجز كما يقال، بل الرجوع إلىٰ الإجماع فريضة شرعية، وواجب محتم، وأصلٌ باقٍ لا نجاة يوم القيامة إلا بإقامته وعدم مخالفته، فإنَّ النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما سئل عن الفرقة الناجية من النار من بين الثلاث والسبعين

فرقة أجاب بقوله: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ وأصحابي**» رواه الترمذي (٢٦٤١) وحسَّنَه العلامة الألباني[١].

وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَىٰ الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، فمَنْ يَعِش مِنْكُمْ فَسَيَرَىٰ اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِـمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ..**» رواه بهذا اللفظ ابن ماجه (٤٣) وأحمد (١٧١٤٢) والحاكم (٣٣١) وغيرهم، وهو حديث صحيح مشهور[٢].

وكما لا يجوز مخالفة الصحابة فيما أجمعوا عليه؛ لا يجوز الخروج عما اختلفوا فيه، فعن سعيد بن الـمسيب أنه سئل عن شيء فقال: اختلف فيه أصحاب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ولا رأي لي معهم. قال ابن وضاح [أحد رواته]: " هذا هو الحق. قال أبو عمر ابن عبد البر الأندلسي معلقـًا: معناه أنه ليس له أن يأتي بقول يخالفهم جميعـًا به " [٣].

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٢٠٤هـ): " فإن اختلفوا أخذنا بقول بعضهم ولم نخرج من أقاويلهم كلهم " [٤]، وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٢٤١هـ): " إذا اختلف أصحاب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يختر من أقاويلهم، ولا يخرج عن قولهم إلىٰ مَنْ

---

(١) [صحيح سنن الترمذي (٢٦٤١)]

(٢) وأورده العلامة الألباني في [السلسلة الصحيحة (٩٣٧) – مصدر سابق]

(٣) كما في [جامع بيان العلم (١/ ٧٧٠) – مصدر سابق]

(٤) كما في [الـمدخل إلـىٰ السـنن الكـبرىٰ (ص ١٠٩) للبيهقـي – ت د. مـحمد ضياء الـرحمن الأعظمي – ط / دار الخلفاء للكتاب الإسلامي بالكويت]

بعدهم " (١)، فإنَّ إحداث قول آخر غير الذي أجمعوا عليه يلزم منه تضليلهم فيما أجمعوا عليه، كما أنَّ إحداث قول زائد علىٰ ما اختلفوا فيه يلزم منه فوات الحق عنهم أجمعين، ومَنْ ترك ما كان عليه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - سواء في إجماعهم أو اختلافهم - لقول غيرهم لزمه أن يكون قولُ هذا الغير حقـاً وهم علىٰ باطل، وأَنَّ الحق خَفِيَ عليهم وضلوا عنه وأجمعوا علىٰ مخالفته فأدركه مَنْ جاء بعدهم، وهذا هو الضلال المبين الذي لا يقوله عاقلٌ فَطِينٌ !! قال الإمام الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٧٩٠هـ) مُعلِّلاً: " لأنـهم كانوا أحرىٰ بفهم ظاهر القرآن وباطنه باتفاق الأئمة، ولا يأتي آخر هذه الأمة بأهدىٰ مما كان عليه أولها، ولا هم أعرف بالشريعة منهم " (٢)، وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ففي التنزيل العزيز ما نَـوَّهَ بفضلهم وأسبقيتهم علىٰ غيرهم، ورضىٰ الله عنهم وعمَّن تبعهم بإحسان، فقال جَلَّ وعَـزَّ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ (التوبة : ١٠٠) وهذا الاتباع الذي قَـيَّدَهُ الله بقوله: ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾ اتباع لهم في فهم الدين وتطبيقه، اتباع لهم فيما كانوا عليه من الاعتقادات والأقوال والأعمال، اتباع لهم فيما أجمعوا عليه، لا يمكن أن يُفهم غير هذا، ومَنْ خالفهم فيما كانوا عليه من فهم الدين وتطبيقه لم يكن متبعـاً لهم بإحسان، بل سيكون مسخوطـاً عليه، لأنه خالف سبيل مَنْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

---

(١) كما في [العُـدة في أصول الفقه (٤/ ١١١٣) لأبي يعلىٰ الفراء الحنبلي - ت د. أحمـد بـن علـي سير الـمباركي - ط / مؤسسة الرسالة بلبنان]

(٢) [الـموافقات (٤/ ٢٤٨) - مصدر سابق]

ورضوا عنه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٧٢٨هـ): " فلهذا يحتاج الـمسلمون إلىٰ شيئين:

أحدهما: معرفة ما أراد الله ورسوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بألفاظ الكتاب والسُّـنَّة، بأنْ يعرفوا لغة القرآن التي بـها نزل، و [**الثاني**: معرفة] ما قاله الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وسائر علماء الـمسلمين في معاني تلك الألفاظ، فإنَّ الرسول لـمَّا خاطبهم بالكتاب والسُّـنَّة عَرَّفَهُم ما أراد بتلك الألفاظ، وكانت معرفة الصحابة لـمعاني القرآن أكمل من حفظهم لحروفه، وقد بَلَّغوا تلك الـمعاني إلىٰ التابعين أعظم مِـمَّا بلغوا حروفه، فإنَّ الـمعاني العامة التي يحتاج إليها عموم الـمسلمين، مثل معنىٰ التوحيد، ومعنىٰ الواحد والأحد، والإيـمان والإسلام، ونحو ذلك؛ كان جميع الصحابة يعرفون ما أحب الله ورسوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من معرفته " (١).

إنَّ فهم الصحابة للقرآن أمر ملزم يتعين الأخذ به وعدم مخالفته، وكان هذا أمراً مشهوراً عند السلف، ففي (الإبانة) لابن بطة العكبري (٢) أنَّ عبد الله بن الزبير قال: لَـقِـيَنِي ناسٌ من أهل العراق فَخَاصَمُونِي في القرآن ! فوالله ما استطعت بعض الرَّدِّ عليهم ، وَهِبْتُ الـمراجعة في القرآن ، فَشَكَوتُ ذلك إلىٰ أبي الزبير ، فقال الزبير: إنَّ القرآن قد قرأه كلُّ قومٍ فَتَأَوَّلُوهُ علىٰ أهوائهم ، وأخطئوا مواضعه ، فإن رجعوا إليك ، فخاصِمْهُم بسنن أبي بكر وعمر رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ ، فإنـهم لا يجحدون أنـهما أعلم بالقرآن منهم ، فلما رجعوا فَخَاصَمْتُهُم بسنن أبي بكر وعمر؛ فوالله ما قاموا معي ولا قعدوا.

---

(١) [مجموع الفتاوىٰ (١٧/ ٣٥٣) – مصدر سابق]

(٢) [(٢/ ٦٢٠) – ت رضا بن نعسان معطي – ط / دار الراية بالسعودية]

وهذا يكشف لنا سبب الاختلاف بين الفرق والمدارس الفكرية القديمة والمعاصرة رغم اتفاقهم علىٰ الإسلام، فعلة اختلافهم تكمن في المنهج الذي تتبعه كل فرقة ومدرسة في فهم كتاب الله وسُنَّة نبيه.

فإذا استغنىٰ الناس عن الصحابة، وتولوا عمَّا كانوا عليه من الدين القويم والصراط المستقيم، وذهبوا يستحدثون مناهج منحرفة، وطرائق مِعْوَجَّة يفهمون بها الدين؛ أصابهم التفرق والاختلاف، والتنازع وذهاب الريح ولا بد، ثم لا يلبثون إلا ويقتتلون فيما بينهم، وحينها؛ سيُزَيِّنُ لهم الشيطان أعمالهم تلك، فلا يرونها إلا حسنة، ولا يبغون عنها حِوَلاً، هذا ما أَكَّدَهُ حبر القرآن عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بفقهه العميق الراسخ حينما سأله أمير المؤمنين عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قائلاً: " كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد، وقبلتها واحدة، وكتابها واحد؟ فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين! إنما أُنزِل علينا القرآن فقرأناه وعلمنا فيما أُنزِل، وأنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن ولا يدرون فيما نزل، فيكون لكل قوم فيه رأي، فإذا كان لكل قوم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا "(١).

فلينَظُرْ مَنْ يريد لنفسه النجاة مع الفرقة الناجية أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كيف فهموا القرآن والسُّنَّة وعملوا بهما، وما الذي أجمعوا عليه وكيف اختلفوا؟ لينهج ما نهجوا، وينجو كما نَجَوْا، قال الإمام الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٧٩٠هـ) في وجوب ذلك: " فلهذا كله يجب علىٰ كل ناظر في الدليل الشرعي مراعاة ما فهم

---

(١) نقله الإمام الشاطبي في [الاعتصام (٣ / ١١٢) – مصدر سابق]

منه الأولون، وما كانوا عليه في العمل به، فهو أحرىٰ بالصواب، وأقوم في العلم والعمل"(١)، وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٢٠٤هـ) فيهم: " وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع وعقل وأمر اسْتُدْرِكَ به علم واسْتُنْبِطَ به ، وآراؤهم لنا أحمد وأولىٰ بنا من آرائنا عندنا لأنفسنا " (٢).

فالصحابة أولىٰ الناس بالحق، ولن يخرج الحق عن قولهم إن أجمعوا، ولا عن أقوالهم إن اختلفوا (٣).

وهذا يقودنا إلى:

۞ القاعدة التاسعة عشر:

إذا اتفقت مصادر التشريع الثلاثة القرآن والسُّـنة وإجماع الصحابة علىٰ ثبوت أمر من أمور الدين فهذا يجعله من ثوابت الدين وقطعياته التي لا يجوز مخالفتها، وتُدخِلُهُ في خانة الـمعاني الكلية التي لا تدرك إلا بكثرة الأدلة، وأمـر عذاب القبر من هذا القبيل، فآيات القرآن فيه صريحة معلومة، وأحاديث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جاءت بذكره صحيحة متواترة ومفهومة، وقد انعقد الإجماع عليه، وأما نَـفيُ عذاب القبر فلم تأتِ به آية واحدة قطعية الدلالة صريحة الـمعنىٰ في كتاب الله، ولا حديث واحد صحيح صريح في سُـنَّة رسول الله، ولا قاله أحد من سلف الأمة وأئمتها الأخيار، فَـتَـعَمُّدُ مخالفة القرآن والسُّـنَّة والإجماع في عذاب القبر ونعيمه خلل في العقل،

---

(١) [الـموافقات (٣/ ٢٨٩) – مصدر سابق]

(٢) كما في [الـمدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ (ص ١٠٩) مصدر سابق]

(٣) انظر [معركة النص (ص ٨٩) لفهد بن صالح العجلان – ط / مجلة البيان بالسعودية]

وضلال في الـمنهج، ومعاندة قبيحة للنصوص الصريحة، ومكابرة وَقِيْحَةٌ للعقول الصحيحة، ولا يجتمع كل هذا إلا في الزنادقة والـملحدين الجُهَّال، قال الإمام السَّـفَّـاريني النابلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت١١٨٨هـ) في منظومته العقدية [١]:

فَكُـلُّ مَـا جَـاءَ مِـنَ الآيَـاتِ ... أَوْ صَـحَّ فِي الأَخْبَـارِ عَـنْ ثِقَـاتِ

مِـنَ الأَحَادِيـثِ نُمِـرُّهُ كَمَـا ... قَدْ جَاءَ فَاسْمَعْ مِنْ نِظَامِي وَاعْلَمَا

وَلا نَـرُدُّ ذَاكَ بِـالْعُقُولِ ... لِقَـوْلِ مُفْتَـرٍ بِـهِ جَهُـولِ

وقال حنبل بن إسحاق ابنُ عَمِّ الإمام أحمد بن حنبل الشيباني وتلميذُهُ : قلت لأبي عبد الله في عذاب القبر فقال: هذه أحاديث صحاح نؤمن بـها ونقر بـها، كلما جاء عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إسناد جيد أقررنا به، إذا لم نُـقِـرَّ بـما جاء به رسول الله ودفعناه ورددناه رددنا علىٰ الله أمره، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧] قلت له: وعذاب القبر حق؟ قال: حق، يُعذَّبُون في القبور. قال: وسمعت أبا عبد الله يقول: نؤمن بعذاب القبر، وبمنكر ونكير، وأنَّ العبد يُسأل في قبره فـ ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] في القبر " [٢].

(١) [الدُّرَّة البهية في عقد الفرقة الـمرضية مع شرحها لوامع الأنوار البهية (١/ ٩٣) - ط / مؤسسة الخافقين ومكتبتها بسوريا]

(٢) نقله عنه الإمام ابن قَـيِّم الجوزية في كتابه [الـرُّوح (١/ ٢٩٦) - مصدر سابق]

۞ القاعدة العشرون:

النظر في النص الشرعي يكون أولاً ثم ينبني عليه الحكم ثانيًا، لا أن يوجد الحكم قبل النظر في النص، وهذا معنىٰ قول أهل العلم: « **استَدِلْ ثم اعتَـقِدْ** »، أي انظر في النص الشرعي ثم ابنِ عليه الأحكام، وَوَلِّـدْ منه الـمعاني، بخلاف مَنْ له هوىٰ في نفسه، وزيغ في قلبه ابتداءً، فإنه يتَّـبِع من النصوص ما يوافق هواه، وينظر فيها اتباعـًا لـما تشابه منها لـما في قلبه من الزيغ، وهذا معنىٰ قول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ (آل عمران : ٧)، وبـمعرفة هذه القاعدة نفهم لـماذا كَـثُـرَ الابتداع وتشعبت الأهواء بأهلها؟! ولـماذا ظهر التفسير السياسي والـمذهبي والطائفي والعصري والـمصلحي للنص الشرعي؟ وكيف حكمت الأهواءُ النصوصَ، وصِـيرَ إلىٰ إفساد غرض الشارع من إنزالها، والتلاعب ببعضها، والعبث بـمعانيها وما دلَّـت عليه؟

۞ القاعدة الحادية والعشرون:

الحكم الشرعي لا ينبني علىٰ النظر في آحاد النصوص وحسب؛ بل بالنظر إلىٰ مجموع أفرادها وما يتعلق بـها، فإن حكم الشارع لا ينكشف ولا يُعرف مراده إلا من مجموع النصوص الواردة ومراعاة اتساقها مع أصول الدين ومقاصده، قال الإمام الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٧٩٠هـ): " ومدار الغلط في هذا الفصل إنـما هو علىٰ حرف واحد، وهو الجهل بـمقاصد الشرع وعدم ضَمِّ أطرافه بعضها إلىٰ لبعض " (١)

---

(١) [الاعتصام (٢ / ٦١ - ٦٢) مصدر سابق]

ولكن لـماذا؟ يـمضي الإمام الشاطبي معللاً فيقول: " فإن مأخذ الأدلة عند الأئمة الراسخين إنـما هو علىٰ أن تؤخذ الشريعة كالصورة الواحدة بحسب ما ثبت من كلياتـها وجزئياتـها الـمرتبة عليها، وعامِّها الـمرتب علىٰ خاصِّها، ومطلقها المحمول علىٰ مقـيَّدها، ومجملها الـمفسر بـمُبَيَّنها، إلىٰ ما سوىٰ ذلك من مناحيها، فإذا حصل للناظر من جملتها حكم من الأحكام؛ فذلك الذى نطقت به حين استُـنطِقَت " (١).



---

(١) [الاعتصام (٢/ ٦٢) مصدر سابق]

ثانياً - الدلائل العقلية:

سيجد القارئ هنا جملة من الدلائل العقلية التي تؤيد الأدلة النقلية الـمثبِتة لعذاب القبر ونعيمه، لا يسع منكر عذاب القبر إلا التسليم بـها، وقبولها لـمنطقيتها الـمُلزِمة الـمُقنِعَة، وفضيلتها الخلقية والأدبية. وهي براهين ومقاييس عقلية لا تخرج عن كونـها شرعية، لأنَّ الشرع أمر الـمؤمنين بإعمال العقل فيما يرونه ويسمعونه، وحجج الله العقلية والنقلية لا تتناقض ولا تتعارض، ولكن تتوافق وتتعاضد، وهذا ما دَلَّ عليه قوله جَلَّ شأنه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥) قال الحافظ أبو الفداء ابن كثير الدمشقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٧٧٤هـ) في تفسيره: " يقول تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالـمعجزات، والحجج الباهرات، والدلائل القاطعات، ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو: النقل الـمُصَدَّق ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ وهو: العدل، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما، وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة الـمستقيمة الـمخالفة للآراء السقيمة "(١).

ولا ريب أن المجهول لا يعرف إلا بالمعلوم، فيقاس المجهول علىٰ المعلوم، وهذا من الـموازين التي أنزلها الله لعباده كما في الآية السابقة، والناس علىٰ هذا

---

(١) [تفسير القرآن العظيم (٨/ ٢٧) لابن كثير - مصدر سابق]

قديمًا وحديثًا، ولا زالت المجتمعات البشرية - مسلمة أو غير مسلمة - تمارسه في كثير من أمورها.

ويحسن التمهيد في هذا المقام بذكر ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٧٢٨هـ) في تائيته [(١)]:

وَأَصْلُ ضَلالِ الْخَلْقِ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ ... هُوَ الْخَوْضُ فِي فِعْلِ الإِلَهِ بِعِلَّةِ

فَإِنَّهُمُو لَمْ يَفْهَمُوا حِكْمَةً لَهُ ... فَصَارُوا عَلَىٰ نَوْعٍ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ

فَإِنَّ لَهُ فِي الخَلْقِ مِنْ نِعَمٍ سَرَتْ ... وَمِنْ حِكَمٍ فَوقَ العُقُولِ الحَكِيمَةِ

أُمُورًا يَحَارُ الْعَقْلُ فِيهَا إِذَا رَأَىٰ ... مِنَ الْحِكَمِ الْعُلْيَا وَكُلِّ عَجِيبَةِ

فَنُثْبِتُ هَذَا كُلَّهُ لإِلَهِنَا ... وَنُثْبِتُ مَا فِي ذَاكَ مِنْ كُلِّ حِكْمَةِ

وَهَذَا مَقَامٌ طَالَمَا عَجَزَ الأُلَىٰ ... نَفَوْهُ وَكَرُّوا رَاجِعِينَ بِحِيرَةِ

وقبل أن نذكر الدلائل العقلية الدالة علىٰ إمكانية حصول عذاب القبر ونعيمه نُذَكِّر القارئ الكريم بأنَّ المنكرين لهذه الحقيقة العلمية لا يقبلون إثبات عذاب القبر ونعيمه بالاستدلال العقلي، بل يريدون إثباتها بالتجارب التي تقع في المعامل والمختبرات العلمية ! ويا لها من مغالطة عمياء وضلال مبين !!!

۞ الدليل الأول:

أكثر أمور الإيمان غيبية، وإذا كان العقل جَوَّزَ الإيمان باليوم الآخر وما فيه من أحوال وأهوال - وهي أشد وأفظع وأهول وأعظم مما في القبور - فأولىٰ له أن يُجَوِّزَ ما دونها في حياة القبور البرزخية، ولولا أنَّ الله ورسوله أخبرانا عنه لَمَا علمنا

---

(١) [القصيدة التائية في القدر لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ١٧١ - ١٧٢) - ت محمد بن إبراهيم الحمد - ط / دار ابن خزيمة بالسعودية]

عنه شيئًا، والعقول الـمستقيمة تؤمن بالغيب كله لتلازم ذلك عندها، وإلا فالكفر بغيبٍ واحدٍ صَحَّ الإخبار عنه من الشارع الحكيم العليم كفرٌ بالغيب كله.

فَـلِـمَ أقررتم - معشر منكري عذاب القبر - أحداث الدار الآخرة التي لا تنقاس بأحداث دار الدنيا وأنكرتم أحداث دار البرزخ - فاصلة ما بين الدارين - وربُّ الدُّورِ كلها هو الله القدير القادر علىٰ كل شيء؟! أليس القادر علىٰ أفعال دار الآخرة - وهي أكبر وأفظع وأهول - أقدر علىٰ أفعال دار البرزخ وهي دونـها بكثير؟! هذا بَـيِّـنٌ لا خفاء به، فما لكم لا تعقلون؟

ويتفرع عن هذا:

أ) لو كان عذاب القبر مكشوفـًا لاستوىٰ جميع الناس في إدراكه فيحصل الإيمان، وتزول حكمة التكليف بالإيمان بالغيب، لأنَّ ما يدرك بالحواس فالناس كلهم متفقون علىٰ تصديقه وعدم إنكاره، والإيمان بالغيب هو الفاروق بين المؤمنين والكافرين.

ب) الإبقاء علىٰ سلامة حياة الناس واستمرار معايشهم ومصالحهم، فإنهم لو شاهدوا ما في القبور من العذاب لَمَا طاب لهم عيش، ولا أَنِسُوا بحياة، ولتفَسَّخَت عزائمهم، ونكلوا عن الكسب والعمل، بل لَماتوا بسبب ما يعتريهم من قلق وخوف لا يفارقهم وقد رأوا آباءهم وأبناءهم وإخوانهم وأزواجهم وأقاربهم وأحبابهم يُعَذَّبُون، ولا يستطيعون لدفع العذاب عنهم حيلةً ولا يجدون سبيلاً، قال أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: "لو أنَّ بني آدم علموا كيف عذاب القبر ما نفعهم العيش في الدنيا "(١)، فنعوذ بالله من عذاب القبر.

---

(١) نقله الزمخشري في [ربيع الأبرار (٥/ ١٥٢) - ت عبد الأمير مهنا - ط / مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بلبنان]

ج) منع التنافس والتفاخر والتشاتم بين الناس بسبب مقبوريهم، فلا يفخر أولياء الـمُنَعَّمِين في قبورهم علىٰ غيرهم، ولا يشمتون بأولياء الـمعذَّبين في قبورهم، فتسوء العلاقات بين الناس، ويتعايرون حينها بـمقبوريهم، ويتنابزون بـمصائرهم.

د) ستر الأموات، فلا يُعلَم حال الـمذنب الذي ستره الله في الدنيا كيف هو الآن في قبره؟ ولو اطلع الناس علىٰ عذابه في قبره لافتضح، ففي ستره رحمة من الله بالـميت. فلك الحمد يا ربنا، وأدم علينا سترك في الدُّور كلها.

هـ) تغييب عذاب القبر عن الناس يُطَـيِّبُ نفوسهم بدفن موتاهم، ولولا الدفن لرأوا وسمعوا أهوالاً لا طاقة لهم بتحمُّلها، ولضعُفَت قواهم عن تقبُّلها، وصَعُبَ عليهم دفن موتاهم حينها.

وقد انتظم هذا كله خبر النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الـمجمع علىٰ صحته: «**إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَىٰ فِي قُبُورِهَا، فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ**» رواه مسلم (٢٨٦٧). وهذه الـحِـكَمُ والغايات تجلِّي بوضوح معاني هذه النصوص وما جاءت له، فليس الإيـمان بـها إيـمان تفويض بألفاظها فحسب، والتعامل معها تعاملاً سلبيًا يقف عند الحكم عليها باشتراط عدم استحالتها عقلاً !! بحيث يتوقف وجودها علىٰ قبول العقل لها، بل نحن مطالبون بالإيـمان بنصوصها، وما دلَّت عليه، وما أريد منها، وإن لم تدرك عقولنا كيفية ذلك، فالعقول تختلف، وأسباب اختلافها أيضًا تختلف، وهذا أمر لا ضابط له ولا منتهىٰ، فالحكم حينئذ للوحي الـمُوحىٰ به إلىٰ نبينا صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٧٢٨هـ): " ومَنْ قال: أنا أقرُّ من الصفات بـما لم يَـنفِـهِ العقل أو أُثبِتُ من السمعيات ما لم يخالفه العقل؛ لم يكن لقوله ضابطٌ، فإنه تصديق بالسمع مشروطًا

بعدم جنسٍ لا ضابط له ولا منتهىٰ، وما كان مشروطًا بعدمِ ما لا ينضبط لم ينضبط، فلا يبقىٰ مع هذا الأصل إيـمان " (١)، وبالله الـمستعان.

۞ الدليل الثاني:

مما يتفق عليه العقلاء القول بأنَّ العقل لا يقبل ما لا يعقل، ويقبل ما يعقل ولو كان غيبًا لا يُـرىٰ، وعذاب القبر يدخل ضمن الغيب الـموجود الذي لا يُرىٰ، لأنَّ الغيب غيبان:

أ) غيب وجودي. ب) وغيب عدمي.

فمن الأول غيوب كثيرة يـمكن تقسيمها إلى قسمين:

١) **الغيب الوجودي الدنيوي:** كالروح، والعقل، والكهرباء، والذرة ومكوناتـها من النواة والنيوترونات والبروتونات والإلكترونات وغيرها، والجاذبية، والأشعة بأنواعها، والـموجات الصوتية الـمنتشرة في أجواء الأرض، وملايين الـكواكب الـموجودة في الفضاء السحيق، وكالـميكروبات التي كانت بالأمس من عالـم الغيب؛ وهي اليوم ضمن عالـم الشهادة، وغيرها كثير مما لا نراه، غير أننا آمنا بـها، وتَـعَـقَّلْنا وجودها.

٢) **الغيب الوجودي الأخروي:** وهو كل ما بعد الـموت مما يحصل في القبور، ويوم البعث والنشور، وما يتبعه من أحوال وأهوال، وما يتلوها من أحداث وأفعال مما لا مجال لمعرفتها بالعقل، ولا بالتجربة، ولا بالـمنامات، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، ولا

---

(١) [درء تعارض العقل والنقل (١/ ١٧٧) مصدر سابق]

بالتنجيم، ولا بـما يسمىٰ بعلوم الطاقة الشركية الرائجة عند الجُهَّال اليوم !! بل مصدرها الوحيد هو الوحي.

ولا يختلف العقلاء أنَّ العلوم لو رُجِعَ فيها إلىٰ غير أهلها لبطلت أمور الناس، وفسدت معايشهم، وأصاب أحوالهم الاضطراب والفوضىٰ والتنازع، والعلوم والـمعارف الغيـبـية لا مصدر لها صحيح إلا الوحي.

وأما الغيب الـعدمي الذي لا وجود له، فهو ما لا يتصور العقل وجوده كوجود إله آخر مثل الله، فهذا مستحيل وجوده، ويُسَمَّىٰ مـمتنع الوجود، وكوحش السباغيتي (الـمعكرونة) الطائر إله ديانة الباستافارية الجديدة الـمخترعة حديثًا عام (٢٠٠٥م) !!! وكوجود شيء بلا صفات، فهذا ممتنع في الأذهان تصوره فضلاً عن وجوده، وكصحون الفضاء الطائرة التي افترض وجودها الخيال العلمي الـمجنون، وجينات الشذوذ التي ادَّعاها لَـوَطَةُ زماننا الـمجرمون، وإن ما يُنشر عنها من دراسات علمية تزعم وجودها فهو من العلم الـمُزيَّف، لغرض تضليل البشر وإقناعهم بأن الشذوذ سلوك طبيعي !!!

فالغيب الوجودي حقيقة غير منظورة، والغيب العدمي خرافة غير مقبولة.

ومن نافلة القول هنا الإشارة إلىٰ أنَّ الكفار استندوا في إنكار البعث بعد الـموت إلىٰ أنه مخالف للمألوف، وهو فناء الأجساد في القبور إلىٰ ذرات، فكيف ترجع إلىٰ الحياة من جديد؟! فتوهموا أن هذا دليل عقلي لا يقف أمامه خبر القرآن بحتمية البعث ! وهذا هو مسلك منكري عذاب القبر ونعيمه تـمامًا، حيث جعلوا تعذيب الـميت بعد فناء جسده في التراب مخالفًا للـمألوف، وتوهموا هذا دليلاً عقليًا

لا تقف أمامه النصوص القرآنية والنبوية المصرحة بعذاب القبر ونعيمه ! سبحان الله !! كيف تشابهت عقولهم !!! قال الإمام أبو إسحاق الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٧٩٠هـ): " فإنَّ المخالف في أصل من أصول الشريعة العملية لا يقصر عن الـمخالف في أصل من الأصول الاعتقادية في هدم القواعد الشرعية " (١).

هذا في الأصول العملية، فكيف والـمخالف هنا مخالف في أصل من أصول الاعتقاد الـمجمع عليه، الـمنقول بالتواتر، الـمتلقَّىٰ بالقبول؟!

والآن؛ هل سيؤمن منكرو عذاب القبر بكونه غيبًا ضمن الغيب الوجودي الأخروي - الذي آمنوا بأكثره - كما آمنوا بالغيب الـوجودي الدنيوي؟ أم سيؤمنون ببعض الغيب ويكفرون ببعض؟!

۞ الدليل الثالث:

العذاب في الدنيا حاصل ومشاهد، وعذاب الآخرة حاصل لكنه مُؤَخَّـر؛ فما الـمانع من وجود عذابٍ في القبر؟ سبحان الله !!! لقد آمن منكرو عذاب القبر بعذاب الدنيا ما رأوه وما لم يروه كالذي جرىٰ للأمم السابقة، وآمنوا بعذاب الآخرة الموعود، وعند البرزخ استحالوا وقوع عذابٍ فيه ! أليس هذا تناقضًا؟ أليس هذا نقصًا في العقول؟ قال الإمام أبو محـمد ابن حزم الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٤٥٦هـ): "فكلما نقص العقل تَوَهَّمَ صاحبه أنَّـه أوفر الناس عقلاً، وأكمل ما كان تـمييزاً" (٢).

---

(١) [الـموافقات (٥/ ١٤٧) - مصدر سابق]

(٢) [رسائل ابن حزم (١/ ٣٩٧) - ت د. إحسان عباس - ط / الـمؤسسة العربية بلبنان]

إنَّ العقل كما جَـوَّزَ العذاب في الدنيا والآخرة فإنه يُـجَـوِّزُ ذلك فيما بينهما، وقدرة الله لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء، وهذا واضح بَـيِّنٌ.

۞ الدليل الرابع:

أيُّهما أقرب إلينا زمنًا؛ الدار الآخرة أم دار البرزخ؟ فإذا كانت الدار الآخرة التي هي أبعد زمانًا ومكانًا في الوجود آمنًّا بـما فيها من النعيم والجحيم؛ فدار البرزخ التي هي أقرب إلينا زمانًا ومكانًا في الوجود أولىٰ بذلك، وإنَّ ما فيها من النعيم والجحيم لهو صورة مصغرة من نعيم الآخرة وجحيمها.

أتؤمنون بالأبعد وتنكرون الأقرب؟ ما لكم كيف تحكمون؟!

۞ الدليل الخامس:

أحكام العقل علىٰ الأشياء عند الفلاسفة ثلاثة لا رابع لها:

أ) **واجب الوجود:** وهو الذي لا يتصور العقل حدوثه وفناءه، أي لا يقبل الإيجاد ولا العدم، بل هو مُستغَنٍ عن غيره قائم بنفسه لكماله، وهذا خاص بالله عَزَّوَجَلَّ، خالقُ كل شيء وربُّه ومَلِيكُه، لا يشاركه فيه أحد، وأقرب ما يؤدي معناه من الأسماء الحسنىٰ اسم الله: القيوم.

ب) **جائز (مـمكن) الوجود:** وهو ما يَتَصَوَّرُ العقل وجوده وعدمه، فقد يكون وقد لا يكون، وهو سائر الـمخلوقات، فهي ليست ممتنعة لأنَّ الـممتنع لا يوجد، وهي موجودة بغيرها، وكل ما أمكن وجوده وعدمه بغيره فهو جائز الوجود.

ج) **مـمتنع الوجود:** وهو ما لا يَتَصَوَّرُ العقل وجوده لعدميته كخالق ثانٍ مع الله ربِّ العالـمين، وطيران الإنسان بدون آلـة، وأن يحمل الرجل ويلد كالـمرأة، ودخول

الجمل في سَمِّ الخياط، وكاجتماع النقيضين السواد والبياض، أو القيام والقعود في آنٍ واحدٍ !

وليس لعذاب القبر ونعيمه من هذه الثلاثة الأحكام إلا الثاني وهو من قسم جائز الوجود ومُمْكِنِهِ، لأنَّ جواز وجوده معقول المعنىٰ، كما أنَّ جواز عدمه معقول المعنىٰ، ولما كان كذلك؛ جاء الوحي بالإخبار عنه كغيب موجود يجب الإيمان به امتثالاً واختباراً.

۞ الدليل السادس:

النائم كالميت كما هو معروف، وللنائم أحوال تشعر بها روحه من لذة وألم، وسرور وحزن، وأمان وخوف، يُحِسُّ بها، ويشاهدها، ويعيش أحداثها وهو نائم، ومَنْ بجانبه لا يرىٰ عليه شيئاً من ذلك، ولا يستطيع كشف ما هو فيه، حتىٰ إذا استيقظ أخبره بما رآه فَصَدَّقَهُ، وهذا أمر يكاد لا يخلو منه نائم، وهذا الذي يحصل للنائم يحصل للموتىٰ في القبور من نعيمٍ أو عذابٍ لا نراه، ولا نقدر علىٰ كشفه والاطلاع عليه.

وهذا يبني الاعتقاد بأنه لا يوجد مانع من تعذيب روح المقبور وهي غير موجودة في الجسد، وتعذيب الجسد بدون الروح.

يا هؤلاء ! كيف تُصَدِّقون خبر نائمٍ من آحاد الناس عن غيبٍ رآه، ولا تُصَدِّقون خبر الصادق المصدوق صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي لا ينطق عن الهوىٰ فيما أخبر عنه مما في القبور من عذاب أو نعيم؟! سبحان الله ! يا للعقول وزيغة الأذهان !!

۞ الدليل السابع:

وأيضًا؛ أليس يرىٰ النائم أموراً من عالم الغيب كالـملائكة والجن والـملكوت وغيرها مما لا عهد له بـها في حال يقظته؟ فَبِـمَ نفسِّـرُ هذه الرؤية الحادة، والشعور الخارق للعادة؟ وإذا كان النوم أخا الـموت، وانكشفت لصاحبه أحوال لم تكن في اليقظة؛ فـما الـمانع من معاينة الـميت لأمور وأحوال هي في دنيانا لا تخطر علىٰ القلوب، ولا تتوقعها العقول؟ هذا مقتضىٰ القياس إنْ لم يوجد الدليل النقلي علىٰ ذلك، فكيف وبين أيدينا عشرات الأدلة النقلية الصحيحة والصريحة علىٰ ما يجري في القبور من أحوال وأهوال، ويعي أصحابـها ما يحصل لهم كما يعي النائم ما يحصل له؟! والوعي دليل علىٰ العقل، وقد جاءنا الخبر عن نبينا ﷺ يَنَصُّ علىٰ رَدِّ العقول علىٰ الناس في قبورهم، ففي صحيح ابن حبان (٣١١٥) ومسند أحمد (٦٦٠٣) (١) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ ذَكَـرَ فَـتَّـانَـيْ القبر، فقال عمر بن الخطاب: أتُـرَدُّ علينا عقولنا يا رسول الله؟ فقال: «نَعَمْ؛ كَهَيْـئَـتِـكُمُ الآنَ»، وقد بَـوَّبَ الإمام ابن حبان عليه بقوله: " ذكر الإخبار بأنَّ الناس يُسألون في قبورهم وعقولهم ثابتة معهم، لا أنـهم يُسألون وعقولهم ترغب عنهم ".

وهذا الحديث يدل علىٰ أنَّ الروح تعود إلىٰ الجسد، إذ بـها يعقل الـمقبور السؤال ويجيب عليه، بل ورد ذكر عَـوْدِ الروح إلىٰ جسد الـميت صريحـًا في حديث البراء بن عازب الأنصاري رضي الله عنه الـمشهور في قصة حضور النبي ﷺ

---

(١) وحسنه العلامة الألباني في [التعليقات الحسان علىٰ صحيح ابن حبان (٥/ ٩٨) - ط/ دار باوزير بالسعودية]

جنازة الرجل الأنصاري، وفيه أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن عود الروح إلىٰ كل ميتٍ مؤمن أو كافر بقوله: «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ...» الحديث بطوله، رواه أحمد (١٨٥٣٤) أبو داود (٤٧٥٣) والحاكم (١٠٧) والبيهقي في إثبات عذاب القبر (٤٤) وإسناده صحيح علىٰ شرط الشيخين كما قال الحاكم النيسابوري، ووافقه الذهبي والألباني وشعيب الأرناؤوط رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

إنَّ منكري عذاب القبر يحرمون أنفسهم العلم والعقل والمنطق، وليس بعد هذا كله إلا الجهل والهوىٰ والسفسطة.

۞ الدليل الثامن:

وأيضًا؛ أليس يرىٰ النائم في منامه بعض مَنْ يعرفهم من الموتىٰ سواء في قبورهم أو في غيرها وهم علىٰ حال إما حسنة أو سيئة، ويطلب منه الميت أن يدعو له أو يتصدق عنه أو يدله علىٰ شيء أو يخبره عن دَينٍ أو غير ذلك من الأمور المتواترة لدىٰ الناس، فعلامَ يدلُّ هذا؟ أليست أرواح الأحياء علىٰ اتصال بأرواح الموتىٰ وهي تحكي حالها من راحة ونعيم أو تعب وجحيم؟ (١)

۞ الدليل التاسع:

وأيضًا؛ نرىٰ النائم يقوم من نومه فيمشي بدون شعور، وربما فتح باب الثلاجة وأكل وشرب، وقد يخرج من البيت، كل ذلك وهو نائم، وروحه مفارقة له، ولكن لها اتصال ببدنه لا نعلمه ولا نراه، بدليل أنه إذا عادت إليه روحه استيقظ ورجع إليه

(١) وانظر [الروح (١/ ٢١٣ وما بعدها – مصدر سابق]

إحساسه، ولو قيل له: إنك فعلت كيت وكيت؛ لنفىٰ ذلك وحلف أنه لم يشعر بشيء من ذلك. إنَّ تصديق هذا لا ينافي تصديق ما يقع للميت في قبره من اتصال روحه ببدنه اتصالاً لا يـمكن مشاهدته ولا الكشف عنه بأي وسيلة، فلماذا تنكرون أيها الـمنكرون هذا وتـثبتون ذاك؟! [(١)].

۞ الدليل العاشر:

أليس يخبر الـمرضىٰ الزَّمْنَىٰ (الـمرض الـمُزمِن) والـمحتضِرون بـما يشعرون به من آلام وعذابات لا يشعر بـها جلساؤهم، ولا يشاهدون منها أثراً علىٰ أجسادهم، فيصدِّقونـهم ويرحمون حالـهم؟ مَن ذا الذي يشكك في هذا؟ لا أحـد ! غير أننا نزيد هذا الدليل إيضاحـًا فنقول: إنَّ الآلام والعذابات التي يشعرون بـها، والأحوال الاستثنائية التي يعيشونـها - وإن لـم تُـرَ بالعين - تدل علىٰ وجود مؤثر، فهي داخلة ضمن القانون الـمتفق عليه بين العقلاء: (**عدم وجود الأثر لا يدل علىٰ عدم وجود الـمؤثر**)، فَـثَـمَّ مؤثر غيبـي آمن به الجميع، مَنْ يشعر ومَنْ لا يشعر، وهذا تـمامـًا ما يحصل للأموات، لا نرىٰ أثراً من نعيم أو عذاب علىٰ أجسادهم لا داخل القبور ولا خارجها من كل مصلوب وقتيل وحريق وغريق وصاحب هدم، ومَنِ افترسته السباع، أو أكلته الطيور، أو التهمته الحيتان، ومن مزَّقَـته النواسف والقنابل كلَّ مـمزق، غير

---

(١) وانظر [الروح (١/ ٣١٢) مصدر سابق] و [عذاب القبر بين الـمانعين والـمثبتين دراسة عقدية (ص ١١) لــ أ.م.د. سامي عويد أحمد / مجلة كليـة التربيـة للعلـوم الإنسـانية - جامعـة تكريـت بالعراق]

أنَّ أصحابـها يرون ويسمعون ويحسون كلٌّ بحسب عمله، إنْ خيراً فراحة ونعيم، وإنْ شراً فعذاب وجحيم (١)

وقد أنشد ابن الأنباري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الخَلْـقُ مُجْتَمِـعٌ طَـوراً وَمُفْتَـرِقٌ وَالحَادِثَـاتُ فُنُـونٌ ذَاتُ أَطْـوَارِ
لا تَعْجَـبَنَّ لأَضْـدَادٍ إِذَا اجْتَمَعَـتْ فَـاللهُ يَجْمَـعُ بَـيْنَ المَـاءِ وَالنَّـارِ

وسأل عبدُ الله بن إدريس الـمُحدثُ الكوفيُّ الـمشهورُ عُلَيَّانَ بنَ أبي مالك البصري عن الـمصلوب يُعذَّبُ عذاب القبر؟ قال: إنْ حَقَّت عليه كلمة العذاب يُعذَّب، وما يدريك؟! لعَلَّ جسده في عذاب من عذاب الله لا تدركه أبصارنا ولا أسماعنا، فإنَّ لله لطفاً لا يُدرَك (٢)

فعافِنا اللهم وارحمنا.

۞ الدليل الحادي عشر:

تأتي علينا أوقات يكون فيها أحدنا مسروراً يشعر براحة ولذة في نفسه، وأوقات نُكِنُّ في صدورنا حزنـًا وألـمـًا لا يدركه ولا يحس به جلساؤنا الذين معنا، إنـهم معنا، ومُـمَتَّعُون بكامل حواسهم وقواهم؛ ومع ذلك لا يستطيعون كشف دواخلنا، ولا إدراك مخبوءات صدورنا ! وهذا أمر لا يختلف عليه أحد من البشر، فأنَّـىٰ للمنكرين

---

(١) وانظر [عذاب القبر بين الـمانعين والـمثبتين دراسة عقدية (ص ١١) - مصدر سابق]

(٢) [العقد الفريد (٧/ ١٦٤) لابن عبدربـه الأندلسـي - ت د. عبـد المجيـد الترحينـي - ط / دار الكتب العلمية]

عذاب القبر ونعيمه أن يدركوا ما يشعر به أصحاب القبور، ويحُسُّوا به وهم عاجزون عما هو دون ذلك في جلسائهم الذين يختلطون بـهم ويعاشرونـهم؟!

۞ الدليل الثاني عشر:

نحن نؤمن بأنَّ الله جَلَّ أمره يـمسك ويرسل أرواح البشر كلهم التي ماتت والتي لـم تَـمُت في منامها، وما تحسُّ به من ألـم أو لذة الـمذكور في قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾(الزمر:٤٢)، ولا ندرك كيف يتم ذلك؟ ولا كيف يَـرُدُّ الله أرواحنا التي لـم تَـمُت إلىٰ أجسادنا ونحن أجساد لا حراك بـها؟! نؤمن بذلك كله ونُصَدِّقه غير شاكين ولا مرتابين، كل هذا ونحن وأرواحنا ما زلنا في عالـم الدنيا، أفـنُدرِكُ ما يشعر به الـميت في قبره من عذاب أو نعيم؟ وضيق أو سَـعَـة في عالـم البرزخ ونحن في دارٍ غير دارهم؟ يا للعقول الزائغة !! ما لأصحابـها لا يتفكرون؟!

۞ الدليل الثالث عشر:

يا مَنْ لا تؤمن بعذاب القبر ونعيمه إلا إذا كان محسوساً مشاهداً؛ هل إدراكك للـموجودات محدود أم مطلق؟ إن قلت: مطلق؛ فأنت مجنون جاهل بجنونك، والـمجنون لا يصح معه الخطاب، فسلام لا نبتغي الجاهلين.

وإن قلت: إدراكي محدود؛ قلنا لك: فلماذا لا تجعل عذاب القبر ونعيمه ضمن **الموجود اللامحدود؟ فالموجودات إما محدودة الإدراك، وإما غير محدودة الإدراك.**

إنَّ ما حولنا من موجودات منها ما يدرك بالـحِسِّ، ومنها ما يدرك بالوجدان، ومنها ما يدرك بالفطرة، ومنها ما يدرك بالأثر، ومنها ما لا يدرك إلا بالوحي كخروج الروح من الجسد أثناء النوم، وعذاب القبر ونعيمه، وهنا يأتي دور الوحي ليفيد العقل بإمكانية وجود ما لا يدركه من الـمغيَّبات الـموجودة، والتي لا مجال للعلم بـها إلا من طريق الوحي وحده، وقد تَـمَّ الاصطلاح عليه بالغيب الـوجودي كما سبق.

۞ الدليل الرابع عشر:

حالنا في دار الدنيا بالنسبة لحال الـمقبورين في دار البرزخ كحال الجنين في بطن أمه بالنسبة للناس حال كونـهم خارج بطن أمه، فلا علم له وهو في داره الصغيرة الـمحدودة بـما يجري للناس خارج بطن أمه في دار هي أكبر من داره، ونحن لا علم لنا ونحن في دار الدنيا بـما يجري للناس في قبورهـم في دار البرزخ، ولا حيلة لنا للكشف عما يجري داخل القبور، ومعاينة أهلها يُعَـذَّبون أو يُـنَعَّمُون، لأنَّ الدار التي نحن فيها محكومة بنظام يختلف عن نظامِ حياة دارِ القبور، كما أنَّ نظام الحياة التي يحياها الجنين في بطن أمه يختلف عما هو خارجها.

والحق أنَّ الإنسان في تنقلاته في الـدُّور الثلاث له في كل دار حياة تختلف عن أختيها زمانـًا ومكانـًا وأحداثـًا، ولا تقبل العقول السليمة استثناء دار البرزخ وجعلها عطلاً عن جريان وسريان هذا القانون الذي حُكِمَت به الدُّور كلها، وهو: لكل دار زمانـها ومكانـها وأحداثـها، ولو لـم يخبر الشارع الحكيم بـهذا القانون؛ لكان العقل السليم قاضيـًا بـه غير شاك فيه ولا مرتاب.

ومن مواعظ الإمام الرباني بلال بن سعد السَّكُوني رَحِمَهُ ٱللَّهُ التي كان يعظ بها الناس قوله: " يا أهل الخلود ! يا أهل البقاء ! إنكم لم تخلقوا للفناء، وإنما خلقتم للخلود والأبد، ولكنكم تنقلون من دار إلىٰ دار، كما نقلتم من الأصلاب إلىٰ الأرحام، ومن الأرحام إلىٰ الدنيا، ومن الدنيا إلىٰ القبور، ومن القبور إلىٰ الموقف، ثم إلىٰ الخلود في الجنة أو النار "(١).

وأحسِبُ أنَّ هذا الدليل العقلي الواضح وحده كافٍ لإثبات عذاب القبر ونعيمه، فَبِهِ يطمئن قلب المؤمن ويزداد إيمانه، ويجد به المرتاب مخرجاً من ارتيابه، والمُنكِرُ سبيلاً للرجوع عن ظنونه وأوهامه، وبالله الهداية والتوفيق.

۞ الدليل الخامس عشر:

تَقَبَّلَ العقل البشري قدرة الحيوانات والحشرات وهي في عالم الشهادة علىٰ سماع الذبذبات تحت الصوتية الخفية التي تعجز أذن الإنسان عن سماعها بعد اكتشاف ذلك بالتجربة والمشاهدة، وفي خبر الصادق المصدوق صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي لا ينطق عن الهوىٰ عن المعذب في القبر ما يدل علىٰ ذلك قبل اكتشاف هذا علمياً، ففي صحيح البخاري (١٣٣٨) وسنن أبي داود (٤٧٥١) عن أنس بن مالك الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يجري للكافر أو المنافق في قبره أنه قال: «... **ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ**».

---

(١) [حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني (٥/ ٢٢٩) دار الفكر بلبنان، والزهد الكبير للبيهقي (ص ٢١٢) مؤسسة الكتب الثقافية بلبنان]

وفي حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند ابن أبي عاصم في السُّـنَّة (٨٦٥): «ثُمَّ يَقْمَعُهُ ذَلِكَ الْمَلَكُ قَمَعَةً بِالْمِطْرَاقِ فَيَسْمَعُهَا خَلْقُ اللهِ كُلُّهُمْ إِلا الثَّقَلَيْنِ» وصححه العلامة الألباني (١).

وفي حديث أبي هريرة الدَّوسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند البزار في مسنده (٩٧٦٠): «ثُمَّ يُضْرَبُ ضَرْبَةً تُسْمِعُ كُلَّ دَابَّةٍ إِلا الثَّقَلَيْنِ» وصححه العلامة الألباني (٢).

وفي حديث أم مبشر الأنصارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عند ابن أبي عاصم في السُّـنَّة (٨٧٥): «إِنَّهُمْ لَيُعَذَّبُونَ فِي قُبُورِهِمْ عَذَابًا تَسْمَعُهُ الْبَهَائِمُ» بإسناد صحيح علىٰ شرط مسلم كما قال العلامة الألباني (٣).

فهذه الأحاديث تثبت سماع الـمخلوقات من دوابِّ الأرض من الحيوانات والحشرات وغيرها كالـملائكة لأصوات الـمعذبين الخارجة عن حيز الأذن البشرية، ولا غرابة؛ فها نحن تكاد تخرج أنفسنا من أجسامنا حينما نسمع صوت الرعد القاصف وهو يزمجر في أرجاء السماء، وترتجف قلوبنا فزعـًا منه، فكيف سنكون إذا سمعنا أصوات الـمعذبين في قبورهم؟! فما أرحمك يا ربـنا ! وإذا اجتمع خبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإثبات سماع الحيوانات وغيرها أصواتَ الـمعذبين في قبورهم مع ما أثبته العلم التجريبي عن دقة ما تسمعه الحيوانات والحشرات من الأصوات التي لا تدخل ضمن نطاق السمع البشري لم يبقَ لإنكار دعاة تحكيم

---

(١) في [ظلال الجنة برقم ٨٦٥]

(٢) كما في [السلسلة الصحيحة برقم ٢٦٢٨]

(٣) في [ظلال الجنة برقم ٨٧٥]

العقل عذابَ القبر معنىٰ، وليس لهم بعد وضوح الحق إلا الإذعان له وتصديقه، وإذ لم يهتدوا بالحق فليبقوا في باطلهم يعمهون، وفي ريبهم يترددون، ولا نعجب حينما نجد مع الحق الهدىٰ والنور، ومع الباطل التخبط في الظلمات والضلال.

ونحن بحمد الله نؤمن بكل ما أخبر عنه نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الغيوب الـماضية والـمستقبلة سواء وافقها العلم الحديث أو لم يوافقها، فنحن علىٰ يقين بصدق ما أخبر عنه نبينا الصادق الـمصدوق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المؤيد بخبر علام الغيوب، وأنَّ ما خالفه من العلوم الحديثة إما نظريات من الظنون والأوهام، والخطأ فيها واقع، يتم التراجع عنها مع مرور الوقت؛ وإما أبحاث ودراسات قائمة علىٰ التزييف والتضليل، وما هي من العلم بسبيل، وأما العلم الصحيح فمحال أن يصادم الدين، ويختلف معه.

۞ الدليل السادس عشر:

يتعلق بـملك الـموت ومَنْ معه من الـملائكة التي تتولىٰ قبض أرواح بني آدم، ففي قوله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ (الواقعة ٨٣-٨٥) ما يؤمن به الـمسلمون قاطبة بعدم رؤية الـملائكة وهي تباشر قبض روح الـميت، فمع كون الحاضرين بين يدي الميت المحتضِر ينظرون إليه؛ تأتي الـملائكة لقبض روحه، والحاضرون لا يرونهم، وهذا أول ما يحصل، وهو غير مرئي ولا مشاهد في هذه الدار، بل وتكلمه الـملائكة والحاضرون لا يسمعون شيئًا، ويأخذون روحه من جسده وسط أهله، ويصعدون بها وقد شخص بصر الـميت نحوها والحاضرون لا يرون من ذلك شيئًا !! كل هذا في دار الدنيا ! فكيف إذا انتقل إلىٰ دار البرزخ، وَوُضِعَ في اللحد، وجاءه ملائكة

آخرون، وتولَّوا أمره، ثم قُضِيَ فيه إما بنعيم وانفتاح باب له إلىٰ الجنة، وإما بعذاب وانفتاح باب له إلىٰ النار؟ ولو أنَّ إنسانـًا نَـبَشَ قبر هذا الـميت لـما رأىٰ شيئًا.

إنَّ عقل الـمؤمن الذي آمن وصَدَّقَ وقَبِلَ بـما تفعله الـملائكة في الدنيا مع الـمحتضر وما يتلو من أمور قبل دفنه، سيؤمن بـما ستفعله الـملائكة بعد دفنه في قبره مما صَحَّتْ به الأخبار عن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عذاب القبر ونعيمه، هكذا يقول العقل سواءً بسواءٍ، وأما مَنْ قَبِلَ عقله ما يحصل لـلميت في دار الدنيا مما لم يشاهده؛ ولا يقبل ما يحصل له في دار البرزخ فهو مُكَذِّبٌ مريضٌ قلبُهُ بوهم يسمىٰ العقل (١)، وهو زيغ الهوىٰ لا غير.

۞ الدليل السابع عشر:

سؤال أخلاقي، وهو: ما الفائدة من إنكار عذاب القبر؟ لِـمَ يتم إنكار هذه العقيدة الـمكنونة تحتها فوائد اجتماعية، وفضائل أخلاقية، وتزكيات نفسية؟ لـماذا يُجِيدُ الـمنكرون الاستهزاء بـها وبأهلها؟ إنَّ رجلاً يؤمن بعذاب القبر ونعيمه سيكون أقوىٰ إيـمانـًا، وأحسن عملاً، وأكثر صلاحـًا، وأشرح صدراً، وأخشع قلبـًا، وأطيب نفسـًا مِـمَّنْ ينكره ولا يؤمن به، وانظُـرْ تَـرَ. ورضي الله عن الخليفة الراشد القانت الخاشع عثمان بن عفان ذي النورين الذي كان مِـمَّنْ يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، ففي مسند أحمد (٤٥٤) وسُـنَنَي الترمذي (٢٣٠٨) وابن ماجه (٤٢٦٧) - وحَسَّنَهُ العلامة الألباني - عن هانئ مولىٰ عثمان، قال: كان عثمان إذا وقف علىٰ قبر بكىٰ حتىٰ يَبُلَّ لـحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتبكي من هذا؟! فقال: إنَّ رسول الله

---

(١) وانظر [الروح (١/ ٣١٤ - ٣١٥) مصدر سابق]

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الْقَبْرُ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ؛ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ». قال: وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلَّا وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ».

قال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ (ت١٦١هـ): " مَنْ أكثر من ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة، ومَنْ غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار " (١).

وفي كتاب الإمام البيهقي في (**إثبات عذاب القبر**) (٢): باب تخويف أهل الإيمان بعذاب القبر (ص ١٠٣ - ١١٤) وذكر تحته عدة أحاديث.

وبهذا يُجابُ علىٰ سؤال المعترض - وقد ألقاه مشكِّكًا -: لماذا كَثُرَ ذكر عذاب القبر ولم يذكر نعيمه؟ لأن التخويف بعذاب القبر أبلغ في نفوس الناس من الترغيب بنعيم القبر، وحضور العقوبة في الذهن أكثر من حضور الجائزة كما هو مجرب، وقال الأستاذ محمد عزت دروزة الفلسطيني رَحِمَهُ اللَّهُ (ت١٤٠٤هـ): " لا بد لذكر ذلك من حكمة، وقد يتبادر أن من هذه الحكمة في هذا الموضوع هو تطمين المؤمن وتثبيته وتشويقه، والحث علىٰ الإيمان والإخلاص، وتخويف الكافر والمنافق، وتقبيح الكفر والنفاق " (٣).

ويجاب أيضًا: لما كان أكثر الناس غير مؤمنين، وعصاةً مذنبين؛ كان أكثر أهل القبور معذبين، والمُنَعَّمُون في قبورهم قليل، وذكر حال الأكثر أولىٰ من ذكر الأقل.

---

(١) كما في [تسلية أهل المصائب في موت الأولاد والأقارب (ص ١٩٤) لمحمد شمس الدين المَنْبِجي - ط / دار الكتب العلمية بلبنان]

(٢) [ت - المكتب السلفي لتحقيق التراث الإسلامي - ط / مكتبة التراث الإسلامي بمصر]

(٣) [التفسير الحديث (٤/ ٣٧٦) ط / دار الغرب الإسلامي بلبنان]

والآن؛ أليس إنكار عذاب القبر بعد هذا عبثًا يُفْقِدُ صاحبه هذه الـمعاني الجليلة، واللحظات الخاشعة؟ ويُـعَـيِّـشُـهُ في الغفلة اللاهية، والقسوة القاتلة؟

وبعد؛ فهذه جملة من الأدلة العقلية، وهناك غيرها، والإنسان الكامل العقل صحيحُهُ إذا تفكر فيها اطمأنَّ قلبه للإيـمان، أما الـمنكرون فسيجدون أنفسهم بعد إمعان النظر فيها مُطَأْطِئِيْنَ رؤوسهم لها خاضعين لصحة ورودها، ووضوح بيانـها، وعقلانية معانيها، فلا يبيتون إلا وهم مؤمنون بغيبِ عذابِ القبر ونعيمه، وأنه حق حقيق بالقبول، ويسعهم ما وسع رسول الله والـمؤمنون فيه، والله يهديهم لاتباع الحق والرجوع إليه، إنه الـموفق لا ربَّ سواه.



فصل: تواتر الأحاديث في عذاب القبر ونعيمه:

لقد تلقىٰ الصحابة هذا المعتقد عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وَرَوَوْا عشرات الأحاديث الصحيحة الدالة عليه، وقد تَعَدَّدَتِ الروايات بذلك، ويمكن عَدُّها – بناءً عليه – من المتواتر، وإن لم يكن أفرادها جاء متواتراً، أي أنَّ كل رواية لم ترد متواترة، ولكنَّ اجتماعها علىٰ هذا المعنىٰ يُشَكِّل التواتر، ويسميه بعض العلماء **المتواتر المعنوي**، وذلك:

١) لوجود عدد كثير يروونها.

٢) ولم يتواطؤا علىٰ الكذب.

٣) وكلهم يذكر معنىٰ هذا الأمر وإن لم يكونوا جميعًا قد ذكروه بلفظ واحد.

فيكفي المعنىٰ الذي تواتروا عليه قد جاء منصوصًا عليه في هذه الروايات الصحيحة، وهذا هو التحقيق الذي يدل عليه منهج العلماء في حكمهم بالتواتر علىٰ ما كان بهذه الشروط المذكورة، هذه الحقيقة العلمية جعلت العلماء يحكمون علىٰ أحاديث عذاب القبر ونعيمه بالتواتر، أما القول بأنها أحاديث آحاد فهو قول مَنْ لم يمارس البحث، وينعم النظر في حديث رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولا معرفة له بالأسانيد والطرق والشواهد، وأحوال الرواة وطبقاتهم ودرجاتهم، ولا علم له بمسالك علماء الحديث في التصحيح والتضعيف، فأنىٰ له الحكم؟ فلهذا كان القول بأن أحاديث عذاب القبر ونعيمه آحاد قولاً أجنبيًا عن العلم وأهله، مخالفًا لما أمر

الله به الجاهلَ سؤالَ العالِمِ في قوله جلّ وعزّ: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (النحل: ٤٣).

ولأبي مزاحم الخاقاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله:

أَهْلُ الْكَلامِ وَأَهْلُ الرَّأْيِ قَدْ عَدِمُوا ... عِلْمَ الْحَدِيثِ الَّذِي يَنْجُو بِهِ الرَّجُلُ
لَوْ أَنَّهُمْ عَرَفُوا الآثَارَ مَا انْحَرَفُوا ... عَنْهَا إِلَىٰ غَيْرِهَا، لَكِنَّهُمْ جَهِلُوا

ويحسن بين يدي ذكر أقوال العلماء المؤكدة على تواتر أحاديث عذاب القبر ونعيمه أن نُطْلِعَ القارئ الكريم على الملاحظات التالية:

١) مجيء أحاديث عذاب القبر ونعيمه وتضافرها علىٰ معنىٰ واحد يُكسِبُها فائدتين مهمتين:

أ) إفادة قطعية ثبوتها.

ب) إفادة قطعية دلالتها علىٰ معنىٰ ما جاءت به.

فيكون التواتر هنا ذا أثرٍ مزدوج.

٢) يحسم تواتر أحاديث عذاب القبر ونعيمه الخلاف الذي أوجده المنكرون في فهم معاني الآيات التي يستدل بها الفريقان: المثبتون والمنكرون، هذا علىٰ فرض تكافؤ الأدلة القرآنية بينهما، فالمصير حينئذٍ إلىٰ أحاديث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحيحات الواضحات الصريحات المفصلات المتواترات في إثبات عذاب القبر ونعيمه عملاً بقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ (النساء: ٥٩)، وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ (الحشر: ٧)، وإلا فآيات القرآن المُثبِتَةُ لعذاب القبر واضحة مفهومة، وهي محكمة، وأما مَنْ أشكل عليه فهم بعض الآيات،

واضطرب عنده تأويلها كآية: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ (يس: ٥٢)؛ فينبغي عليه أن يَرُدَّ ذلك إلىٰ الآيات المحكمات الدالات علىٰ عذاب القبر، وما تفعله الـملائكة بالكفار بعد موتـهم مباشرة، كقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ:

١- ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ٤٥ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ (غافر: ٤٥- ٤٦).

٢- وقوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٥٠﴾ (الأنفال: ٥٠).

٣- وقوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٩٣﴾ (الأنعام: ٩٣)، والبسط في قوله: ﴿بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ﴾ الـمضاف إلىٰ الـملائكة يصف حالهم وتَـهَيُّأَهُم لأخذ أنفس الظالـمين بعنف وشدة وقهر، قائلين لهم في حنق وغيظ عليهم: " أخرِجُوا أرواحكم " وهم يضربون وجوههم وأدبارهم فور خروجها كما في:

٤- قوله تعالىٰ: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ٢٧﴾ (محمد: ٢٧)، وهذا كله قبل أن يُدفَنُوا، لأن قوله : ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ جملة حالية [١] تحكي حال الـملائكة معهم قبل دفنهم، فكيف بعد دفنهم في قبورهم؟ والـمعنىٰ هنا ظاهر بحمد الله.

---

(١) جاء في تفسير ابن كثير(٧ / ٣٢١): " أي: كيف حالهم إذا جاءتـهم الـملائكة لقبض أرواحهم وتَـعَـصَّتِ (امتنعت) الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الـملائكة بالعنف والقهر والضرب، =

٥- وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ (المؤمنون: ٩٩-١٠٠) ولو تساءل كل منكر لعذاب القبر في نفسه: لِـمَ يطلب هذا الـميت الرجعة إلىٰ الدنيا ولَـمَّا تَـقُمْ ساعة البعث والنشور قائلاً : يا رب ! أسألك الرجعة لأؤمنَ بـما كفرتُ، وأصلحَ ما أفسدتُّ، وأطيعَ فيما عصيتُ !!! فبينه وبين ذلك اليوم برزخ وأيُّ برزخ، ويأتيه الجواب كاشفـًا رفض رجائه الـمحسور بقوة، لأنه إيـمانُ مشاهدةٍ اضطراري لا جدوىٰ منه: كلا؛ إن كلمتك هذه لا قيمة لـها عندنا، فقد فات الأوان، ونزل عذاب الهون بك الآن، فأمامك برزخ الـموتىٰ الذي لا ينتهي إلا بيوم البعث الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين.

وهذه أصرح خمسِ آياتٍ محكماتٍ في القرآن وأوضحها لإثبات عذاب القبر، وإثبات نعيمه باللزوم، وأما تكلف معانيها بالتأويلات البعيدة، والتفسيرات التي لا تذكر إلا نَـكِدَةً؛ فخَبْطُ عشواء، وركوب عمياء.

= كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٥٠]، وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالضرب ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: ٩٣] " أهـ.

وعند آيتي الأنفال (٥٠) والأنعام (٩٣) ذكر علماء النحو أنـهما جاءتا في سياق الشـرط وجوابـهما محذوف لغرض الإبـهام البليغ لإرادة التعظيم، وتقديره: لرأيت أمراً فظيعـًا. انظـر (التفصيل في إعراب آيات التنزيل ١٠ / ٣٨).

فأيُّ عذاب ينتظر الكفار وهم يُـنهُوْنَ به حياتـهم الدنيوية ويبـدؤون بـه حياتـهم الأخروية؟! فاللهم رحماك.

وأما إذا رجع إلىٰ أحاديث رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عذاب القبر ونعيمه؛ فسيجد بين يديه عشرات النصوص المتواترة **التواتر المعنوي** التي جاءت لتزيد الآيات المُثْبِتَةَ لعذاب القبر تأكيداً علىٰ حدوث هذا الأمر، ومبيِّنة له بالتفصيل، قال الإمام ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللهُ (ت٧٥١هـ): " وأنت إذا تأملت أحاديث عذاب القبر ونعيمه وجدتها تفصيلاً وتفسيراً لما دَلَّ عليه القرآن " (١).

ولا يجوز لمن اكتفىٰ بالقرآن أن يجعل ما فهمه من آية سورة (يس:٥٢) آنفة الذكر شبهةً تنفي ما تواتر عن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا، فالحديث المتواتر الواضح المعنىٰ الذي يحصل به العلم الضروري أقوىٰ دلالة من الاستدلال بآية حصل في معناها - لا في ثبوتها - أخذٌ وردٌّ، وتباينت أقوال الناظرين فيها لظنية دلالتها، فالظني لا يقاوم القطعي، هذا هو العلم، وهذه هي قواعده، وليس وراء ذلك إلا الضلال المبين الذي يسلكه كل صاحب هوىٰ زائغٌ قلبُهُ عن الحق، متبعٌ للمتشابه، تاركٌ للمحكم الواضح المعنىٰ ابتغاء تأويله لتحريف معناه كما وصفهم الله العليم الخبير بهم بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾ (آل عمران:٧)، **وإن منكري عذاب القبر ونعيمه إما:**

١) قوم في قلوبهم زَيغٌ، فَزيغَ بهم كما قال ربنا جَلَّ أمره: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ (الصف: ٥)، قال شيخ الإسلام

(١) [الروح (ص ٣٣٩) - مصدر سابق]



محمد بن عبد الوهاب التميمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت١٢٠٦هـ): " **القاعدة الثالثة**: أن ترك الدليل الواضح، والاستدلال بلفظ متشابه هو طريق أهل الزيغ كالرافضة والخوارج، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ **[(آل عمران : ٧)]**، والواجب علىٰ الـمسلم اتباع الـمحكم، وإن عرف معنىٰ الـمتشابه وجده لا يخالف الـمحكم بل يوافقه، وإلا فالواجب عليه اتباع الراسخين في قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ **[(آل عمران : ٧)]** "(١)، فيا ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾ **(آل عمران:٨)**.

٢) وإما قوم جهال كذَّبُوا بـما لم يحيطوا بعلمه، وهم فتنة للصنف الأول أهل الزيغ والضلال، كما إن أولئك فتنة لهؤلاء، فهم يفتن بعضهم بعضاً، وقد جمعهم الشذوذ عن جماعة الـمسلمين، ومفارقة إجماعهم.

٣) أحاديث عذاب القبر ونعيمه التي في الصحيحين خاصة لها مزية علىٰ غيرها، فهي تكتسب وحدها **حصول العلم اليقيني لتلقي الأمة لأحاديثهما بالقبول** (٢)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ٧٢٨هـ): " فكثير من متون الصحيحين متواتر اللفظ عند أهل العلم بالحديث وإن لم يعرف غيرهم أنه متواتر، ولهذا كان أكثر متون

---

(١) [أربع قواعد تدور عليها الأحكام (ص ٤) - ت / عبد العزيز بن زيد الرومي وصاحبه - ط / جامعة محمد بن سعود الإسلامية بالسعودية]

(١٢٣) وانظر [أحاديث الصحيحين بين الظن واليقين - حافظ ثناء الله الزاهدي / مجلة البحوث الإسلامية (عدد ١٨)]

الصحيحين مما يعلم علماء الحديث علماً قطعياً أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاله، تارة لتواتره عندهم، وتارة لتلقي الأمة له بالقبول " (١).

٤) العبرة في كل علم بكلام أهله وذوي الاختصاص فيه، فالقول بتواتر أحاديث عذاب القبر ونعيمه هو قول علماء الحديث، ولا علاقة لغيرهم في هذا الباب إثباتاً ولا نفياً، إذ القول للعالم دون الجاهل، ولأصيل العلم لا لدخيله، والعقل يدل علىٰ هذا فضلاً عن الشرع، فكما لا يصح أخذ الطب عن علماء الفلك؛ فكذلك لا يؤخذ حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكيفية نقله، وما أضيف إليه، وما صَحَّ منه وما لا يصح إلا من علماء الحديث، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ (ت٧٢٨هـ): " وعلماء الحديث يتواتر عندهم ما لا يتواتر عند غيرهم؛ لكونهم سمعوا ما لم يسمع غيرهم، وعلموا من أحوال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما لم يعلم غيرهم " (٢).

وللعلم؛ فإن كثرة كاثرة من أئمة علماء الحديث المرجوع إليهم فيه كيحيىٰ بن معين الغَطَفَاني البغدادي، ويحيىٰ بن سعيد القطان التميمي البصري، وعبد الرحمن بن مهدي البصري اللؤلؤي، وأبي زرعة وأبي حاتم الرَّازِيَّيْن وآخرين كان علمهم بالحديث وعلومه أكثر من روايتهم للحديث، وذلك لانشغالهم بحفظ ألفاظه ورواياته ونخلها وغربلتها، ومعرفة رواته وتتبع أحوالهم ومراتبهم من حيث القبول والرَّدِّ، فشَغَلَهُم هذا عن الإكثار من روايته كما عرف عن غيرهم، فأي دليل علىٰ

(١) [مجموع الفتاوىٰ (١٨ / ٤١) - مصدر سابق]

(٢) [مجموع الفتاوىٰ (١٨ / ٦٩ - ٧٠) - مصدر سابق]

فضلهم وتقدمهم علىٰ غيرهم، وأحقيتهم بالرجوع إليهم، وأن القول الفصل قولهم يكون أقوىٰ من هذا؟

ولله دَرُّ الإمام أبي محمد ابن حزم القائل: " لا آفة أَضَرُّ علىٰ العلوم وأهلها من الدخلاء فيها وهم من غير أهلها، فإنهم يجهلون ويظنون أنهم يعلمون، ويفسدون ويقدرون أنهم يصلحون "(١)

٥) إذا صَحَّ الحديث وسلم من القوادح عند علماء الحديث فإنه حجة سواء في الأحكام أو في العقائد، وسواء تعددت طرقه أو لم تتعدد، فالعبرة بثبوته صحيحاً بشرائطه المعروفة عند أهله، قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٢٠٤هـ): " لا يَلزَمُ قول بكل حال إلا بكتاب الله أو سنة رسوله، وأن ما سواهما تبع لهما، وأنَّ فَرْضَ الله علينا وعلىٰ من بعدنا وقبلنا في قبول الخبر عن رسول الله واحد، لا يختلف في أن الفرض والواجب قبول الخبر عن رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " (٢)

وأما التفريق بين ما كان آحاداً وما كان متواتراً في العقائد فقول محدَث لم يكن عليه الصحابة ولا تابعوهم ولا أئمة الإسلام، وأضرَّ بالمسلمين وفَرَّقَهم شيعاً وأحزاباً، وما كان كذلك فليس من الدين في شيء.

٦) يرجع سبب نفي تواتر أحاديث عذاب القبر ونعيمه إلىٰ عدم الاطلاع علىٰ الجَمِّ الغفير من الأحاديث الواردة المتنوعة الألفاظ المتحدة المعنىٰ فيها، ومَنْ علم حجة علىٰ مَنْ لم يعلم، ولو نظر النافي إلىٰ أحاديث كتاب (**إثبات عذاب القبر**

---

(١) [الأخلاق والسِّيَر (ص ٩١) ت / إيفا رياض - دار ابن حزم بلبنان]

(٢) [الأم (٧ / ٢٨٧) ط / دار المعرفة بلبنان]

للبيهقي) وحده فقط؛ لوجد العشرات منها، منقولة عن (٣٩) صحابيًا؛ وسيدرك حينها تواترها، ولن يسعه نفي ذلك، هذا غير الأحاديث التي لم يستوعبها الإمام البيهقي في كتابه هذا كما ذكر محقق الكتاب [١].

وقد أشار أحد الباحثين الفضلاء في مقالة له بعنوان: (**هل هناك أحاديث متواترة؟**)[٢] إلىٰ جملة من تلك الأحاديث، وعدد مَنْ يرويها من الصحابة، مثل: حديث «**عَذَابُ الْقَبْرِ حَقٌّ**»، فقد روي عن أربعة من الصحابة، وحديث: «**هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَىٰ فِي قُبُورِهَا**» فقد رواه أربعة من الصحابة أيضًا، وحديث تفسيره صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقوله تعالىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ﴾ [(إبراهيم: ٢٧)] وفيه إثبات عذاب القبر، فقد روي عن ستة من الصحابة، وحديثه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين مَرَّ علىٰ قبرين وقال: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ**»، فقد رواه خمسة من الصحابة، وحديث دعائه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ المشركين «**مَلأَ اللهُ قُبُورَهُم نَارًا**»، فقد رواه ستة من الصحابة، وحديث: «**مَنْ يَقْتُلُهُ بَطْنُهُ؛ فَلَنْ يُعَذَّبَ فِي قَبْرِهِ**» فقد رواه صحابي، قلت: بل يمكن عَدُّهُ عن صحابيين هما: سليمان بن صُرَد، وخالد بن عُرفُطة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وحديث: «**وَيُجَارَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، ويَأمَن مِنَ الْفَزَعِ الْأَكْبَرِ ويجار**» فقد روي عن أربعة من الصحابة، وحديث: «**قُسِطَ عَلَيْهِ عَذَابُ الْقَبْرِ**» فقد رواه صحابي، وحديث: «**أَكْثَرُ عَذَابِ الْقَبْرِ مِنَ الْبَوْلِ**» أو «**عَامَّةَ عَذَابِ الْقَبْرِ مِنَ الْبَوْلِ**»،

---

(١) انظر [إثبات عذاب القبر (ص ١١) – مصدر سابق]

(٢) للأستاذ الباحث شريف محمد جابر الفلسطيني ضمن [(مدونات الجزيرة) علىٰ الشبكة العنكبوتية]

فقد روي عن خمسة من الصحابة، وحديث: «إِذَا فَرَغَ أَحَدُهُمْ مِنَ التَّشَهُّدِ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ»، ومنها عذاب القبر، رواه صحابي، وحديث دعائه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في جنازة أحدهم بأن يعيذه الله من عذاب القبر، رواه صحابي، وحديث: «سُورَةُ تَبَارَكَ الْمَانِعَةُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»، رواه صحابيان، وحديث: «الْقَبْرُ أَوَّلُ مَنزِلٍ مِنْ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ»، رواه صحابي، وحديث: «لَوْ سَأَلْتِ اللهَ عَزَوَّجَلَّ أَنْ يُنْجِيَكِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ» قاله لزوجه أمِّ حبيبة، رواه صحابي، وحديث: «لَقَدْ ضُمَّ ضَمَّةً»، رواه صحابيان.

وذكر الإمام أبو محمد بدر الدين العيني رَحِمَهُٱللَّهُ (ت٨٥٥هـ) عدداً من أسماء الصحابة الرواة لأحاديث عذاب القبر ونعيمه، ومواضع مروياتهم في الصحاح والسنن وغيرها (١).

وكذا علامة المغرب محمد الإدريسي الكتاني رَحِمَهُٱللَّهُ (ت١٣٤٥هـ) سرد جملة من أسماء رواة أحاديث عذاب القبر ونعيمه (٢)، ولكثرة ما جاء عن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في هذا الأمر من نصوص وآثار بحيث يتعذر استقصاؤها في كتاب قال الإمام أبو عمر ابن عبد البر الأندلسي رَحِمَهُٱللَّهُ (ت٣٦٤هـ): " والآثار في عذاب القبر لا يحوط بها كتاب " (٣).

والآن؛ هل سيماري ذو لُبٍّ صافي الذهن كريمُ النفس في تنوع الأحاديث، وتعدد الأسانيد، وكثرة الروايات في الجزم بنسبتها إلىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأنها تفيد

---

(١) انظر كتابه [عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٦/ ٢٢٤) ط/ دار إحياء التراث بلبنان]

(٢) في كتابه [نظم المتناثر من الحديث المتواتر (ص ١٢٥ - ١٢٦) - ت شرف حجازي - ط/ دار الكتب السلفية بمصر]

(٣) [التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٢٢/ ٢٥١) مصدر سابق]

العلم اليقيني القطعي، ويجد الإنسان نفسه مضطراً إلىٰ تصديقها كما لو كان سمعها من الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مباشرة؟! وأنَّ نفيها بعد هذا لا يكون إلا مِـمَّنْ غلب هواه اتباعَه؟! وجحودُه إيـمانَه؟! وهذا شأن الـمكذبين الزائغين، والزنادقة الـمُبطلين في كل حين، قال الإمام القدوة سهل بن عبد الله التستري رَحِمَهُ اللَّهُ (ت٢٨٣هـ): " إنـما سمي الزنديق زنديقًا؛ لأنه وَزَنَ دِقَّ الكلام بمخبول عقله، وقياس هوىٰ طبعه، وترك الأثر، والاقتداء بالسُّـنَّة، وتأول القرآن بالهوىٰ " (١).

وقال الإمام أبو بكر الآجُرِّي رَحِمَهُ اللَّهُ (ت٣٦٠هـ) بعد أن سرد عدة أحاديث في عذاب القبر: " ما أسوأ حال مَنْ كَذَّبَ بـهذه الأحاديث ! لقد ضَلَّ ضلالاً بعيداً، وخسر خسرانًا مبينًا " (٢) .

لقد كان يتوجب عليهم أن يتعلموا ما جهلوا، ويطلبوا ما فقدوا، فإذا تكلموا تكلموا بكلام لا يعيبه أهل العلم، ولا يخرج عن قانونـهم.

٧) حصل لكثير من منكري عذاب القبر ونعيمه القطع بـما يُنقَل عن الحكماء والفلاسفة والشعراء قبل الإسلام، والاستدلال والاستشهاد بأقوالهم في شتىٰ الـمواضيع وليست منقولة بالتواتر، بل ولا يوجد لها أسانيد إلىٰ قائليها ! فلا ينكرون منها شيئًا ! ولكنهم عند أحاديث عذاب القبر ونعيمه التي نقلت بالأسانيد الصحيحة، والرواة العدول الثقات، وقد أطبقت عليها الأمة في قرونـها طبقة بعد طبقة، وفَشَت في كتب الحديث ودواوين الإسلام يشترطون التواتر !!! إن لم يكن هذا ضلالاً في الأرض؛ فلا يوجد علىٰ ظهرها ضلال.

---

(١) [سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٣٢) - مصدر سابق]

(٢) [الشريعة (٣/ ١٢٨٥) - مصدر سابق]

٨) ثبوت التواتر في أحاديث عذاب القبر ونعيمه انبنىٰ عليه أصل عقائدي في مسألة إيـمانية غيبية، وهذا الذي جعل العلماء يدرجونه ضمن أصول العقائد، ويُدَوِّنُوْنَهُ في مدونات عقائد أهل السُّـنَّة، كونه قطعي الثبوت قطعي الدلالة، ويُـمَيِّزُوْنَهُ بالذكر رداً علىٰ الـمخالفين من: الفلاسفة الدهريين، والـملاحدة الباطنيين، والزنادقة الـمعاندين، وأهل الأهواء والبدع الضالين.

وإنـما فعلوا هذا لأنه لا عذر عندهم لـمخالف في مسائل الغيب الإيـمانية، التي لا مجال للعقل ليجتهد فيها، بل نصٌّ متبع، واقتفاء مأثور.

٩) سيتبين بعد الاطلاع علىٰ نقولات العلماء الـمتواترة في تواتر الأحاديث الواردة في عذاب القبر ونعيمه أن مقالة (لا تواتر في غير القرآن) من مفتريات بعض الـمعاصرين، وما هي إلا مشاغبة باطلة يزهقها ما تواتر من النصوص الصحيحة الصريحة، والإجماع، وتلقي الأمة بالقبول لها، ورواية صاحبي الصحيحين لها خاصة، فهذه أربع مزايا اجتمعت في أحاديث عذاب القبر ونعيمه، وتضافر هذه كلها يفيد القطع بنسبتها إلىٰ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتواترها عنه تواتراً مجزومـًا به.

١٠) خلاف الـمنكرين لعذاب القبر خلاف في قطعي متواتر مجمع عليه، وسبيلهم سبيل مَنْ أنكر الضروري من الدين، فلا يُلتَفت إلىٰ خلافهم، ولا ينبغي أن يُذكَر كخلاف، ولا خلاف مع الإجماع، ولهذا لم يُعرَف إنكاره إلا عند الـمتأخرين، أما الصحابة ومَنْ تبعهم بإحسان فمتفقون علىٰ الإيـمان به، مجمعون علىٰ اعتقاده، والقول بمقتضاه، قال الإمام الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٢٥٠هـ): " وقد تقرر في القواعد الإسلامية أن منكر القطعي وجاحده والعامل علىٰ خلافه تـمرداً أو عناداً أو استحلالاً

أو استخفافًا كافر بالله وبالشريعة المطهرة التي اختارها الله تعالىٰ لعباده "[(١)].

وحتىٰ يكون القارئ علىٰ دراية بما قاله علماء الأمة، وأئمة الإسلام في مجيء أحاديث عذاب القبر ونعيمه متواترة؛ فهذه جملة صالحة من أقوالهم الـمنثورة في مصنفاتـهم الـمشهورة، فمن ذلك:

١) قال الإمام أبو عمر ابن عبد البر الأندلسي الـمالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٣٦٤هـ): " أما الآثار عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في عذاب القبر فلا تكاد تحصىٰ بعددٍ تواتراً واشتهاراً وصحةً... وكذلك هي عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان كثيرة وشهيرة، يجب الاستناد إليها " [(٢)].

٢) وقال الإمام ابن أبي الـعـز الأذرعي الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٧٩٢هـ): " وقد تواترت الأخبار عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لـمن كان لذلك أهلاً، وسؤال الـملكين، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيـمان به، ولا نتكلم في كيفيته، إذ ليس للعقل وقوف علىٰ كيفيته لكونه لا عهد له به في هذا الدار، والشرع لا يأتي بـما تحيله العقول، ولكنه قد يأتي بـما تحار فيه العقول " [(٣)].

٣) وقال الإمام الحافظ أبو جعفر الطحاوي الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٣١٠هـ): " وقد رُوِيَتْ عن رسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ آثارٌ باستعاذته منه متواترةٌ " [(٤)] ثم ذكر بعضها.

---

(١) [الفتح الرباني من فتاوىٰ الإمام الشوكاني (١١/ ٥٧٥٠) ـ ت أبـو مصـعب محـمد صبحي بـن حسن حلاق ـ ن/ مكتبة الجيل الجديد باليمن]

(٢) [الأجوبة الـمستوعبة (ص ١٦٠) مصدر سابق]

(٣) [شرح العقيدة الطحاوية (٢/ ٥٧٨) مصدر سابق]

(٤) [شرح مشكل الآثار (١٣/ ١٧٦) - ت شعيب الأرناؤوط - ط/ مؤسسة الرسالة بلبنان]

٤) وقال الإمام الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٧٩٥هـ): " وقد تواترت الأحاديث عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عذاب القبر، والتعوذ منه... " (١) ثم ذكر عدداً منها.

٥) وقال الإمام أبو عبد الله ابن قـيِّم الجوزية الزرعي الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٧٥١هـ): " فأما أحاديث عذاب القبر، ومساءلة منكر ونكير؛ فكثيرة متواترة عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... " (٢) ثم ذكر جملة منها

٦) وقال إمام الحرمين أبو المعالي الجويني الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٤٧٨هـ): " وقد تواترت الأخبار باستعاذة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بربه من عذاب القبر... " (٣).

٧) وقال الحافظ المؤرخ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٧٧٤هـ): " وأحاديث عذاب القبر كثيرة جداً " (٤).

٨) وقال الإمام القدوة أبو زكريا يحيىٰ بن شرف النووي الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٦٧٦هـ): " اعلم أن مذهب أهل السُّنَّة إثبات عذاب القبر، وقد تظاهرت عليه دلائل الكتاب والسُّنَّة، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ...﴾ الآية [(غافر: ٤٦)]، وتظاهرت به الأحاديث الصحيحة عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من

---

(١) [تفسير ابن رجب الحنبلي (٢/ ٣٥٦) ت – طارق عوض الله – ط / دار العاصمة بالسعودية]

(٢) [الروح (ص ٢٨٤) – مصدر سابق]

(٣) [الإرشاد إلىٰ قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد (ص ٣٧٥) ت – د. محمد يوسف موسىٰ وصاحبه – ط / مكتبة الخانجي بمصر]

(٤) [تفسير القرآن العظيم (٧/ ١٤٧) لابن كثير – مصدر سابق]

رواية جماعة من الصحابة في مواطن كثيرة، ولا يمتنع في العقل أن يعيد الله تعالىٰ الحياة في جزء من الجسد ويعذبه، وإذا لم يمنعه العقل، وورد الشرع به؛ وجب قبوله واعتقاده " (١).

٩) وقال الفقيه نجم الدين أبو الفضائل مَنْكوبَرسُ بن عبد الله الناصري الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٦٥٢هـ): " وقد تواترت الأخبار عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً، وهو مذهب أهل السنة والجماعة، فيجب الاعتقاد بثبوت ذلك. وأما قولهم بسؤال منكر ونكير للميت في قبره عن ربه ودينه ونبيه، وقولهم بأن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران؛ فإنما قالوا ذلك بما تواترت الأخبار عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك كله، ولاتفاق الصحابة رضوان الله عنهم علىٰ ثبوته " (٢).

١٠) وقال الإمام بدر الدين محمد بن أبي بكر المخزومي الاسكندراني المالكي المعروف بابن الدماميني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٨٢٧هـ): " وقد كثرت الأحاديث في عذاب القبر حتىٰ قال غير ما واحد: إنها متواترة، لا يصح عليها التواطؤ، وإن لم يصح مثلها؛ لم يصح شيء من أمر الدين " (٣).

---

(١) [المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي (١٧ / ١٩٧ – ١٩٨) ت – خليل مأمون شيحا – ط / دار المعرفة بلبنان]

(٢) [النور اللامع والبرهان الساطع – بواسطة (أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة) لمحمد بن عبد الرحمن الخميس (ص٥٠٤) ط / دار الصميعي بالسعودية]

(٣) [مصابيح الجامع (٣ / ٢٩٩) ت – نور الدين طالب وآخرون – ط / وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بقطر]

١١) وقال الحافظ الوشتاني التونسي المالكي المشهور بالأُبِّيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٨٢٧هـ): " تواترت الأحاديث بإثبات عذاب القبر " (١).

١٢) وقال إمام أهل الحديث في عصرنا الشيخ العلامة محمد ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت١٤٢٠هـ):" والأحاديث في ذلك متواترة، فلا مجال للشك فيه بزعم أنها آحاد ! ولو سلمنا أنها آحاد فيجب الأخذ بها لأن القرآن يشهد لها، قال تعالىٰ: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٦﴾ [(غافر: ٤٥-٤٦)]، ولو سلمنا أنه لا يوجد في القرآن ما يشهد لها، فهي وحدها كافية لإثبات هذه العقيدة، والزعم بأن العقيدة لا تثبت بما صح من أحاديث الآحاد زعم باطل دخيل في الإسلام، لم يقل به أحد من الأئمة الأعلام كالأربعة وغيرهم، بل هو مما جاء به بعض علماء الكلام، بدون برهان من الله ولا سلطان... " (٢)

سيلاحظ القارئ أن العلماء المذكورين هنا وإن تنوعت علومهم الإسلامية ومعارفهم الدينية (حديث - فقه - عقيدة - تفسير - تزكية) ومدارسهم العلمية (حنفية - مالكية - شافعية - حنبلية) وتباعدت سنواتهم الزمانية وتناءت بلدانهم المكانية؛ إلا أنهم اتفقوا هنا علىٰ نقل التواتر في أحاديث عذاب القبر، فعلام يدل هذا؟

---

(١) [إكمال إكمال المعلم (٣/ ٢٣٥) بواسطة (الأحاديث المشكلة الواردة في تفسير القرآن الكريم عرض ودراسة) د. أحمد بن عبد العزيز القصير (ص ١٧٠) ط / دار ابن الجوزي بالسعودية]

(٢) [السلسلة الصحيحة (١/ ٢٩٥ - ٢٩٦) - مصدر سابق]

فصل: نقل الإجماع على عذاب القبر ونعيمه:

لأهمية هذا الفصل؛ فإنه يحسن ذكره هنا، وذلك أَنَّ الإجماع عمومًا مصدر تشريعي كما هو معلوم، وهو في حقيقته استناد إلىٰ أدلة من القرآن أو السُّنَّة، أفادت القطع فكان الإجماع، وعليه تقوم كثير من الأحكام، وبه فصل الخطاب عند اشتباه الآيات واختلاف الآراء حول معانيها، فإذا تحقق وقوعه، وتأكد نقله، فهو حجة مُلْزِمَة، ولا يجوز لأحد مخالفته، لأنه معصوم من الخطأ، لا سيما إن كان في أمور الغيب التي لا مجال فيها للاجتهاد، وعذاب القبر محل إجماع عند السلف كلهم، وثبوته - كما سيأتي - يدفع الخلاف الحادث ويمنعه، بل ويرفعه إلىٰ القطعيات، ويجعله من كبرىٰ اليقينيات.

وَلْنَدَعْ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٧٢٨هـ) يبين لنا ذلك بقوله: " كل ما أجمع عليه المسلمون فإنه يكون منصوصًا عن الرسول، فالمخالف لهم مخالف للرسول، كما أن المخالف للرسول مخالف لله، ولكن هذا يقتضي أن كل ما أجمع عليه قد بينه الرسول، وهذا هو الصواب. فلا يوجد قط مسألة مجمع عليها إلا وفيها بيان من الرسول، ولكن قد يخفىٰ ذلك علىٰ بعض الناس ويعلم الإجماع فيستدل به، كما أنه يستدل بالنص من لم يعرف دلالة النص، وهو دليل ثان مع النص، كالأمثال المضروبة في القرآن، وكذلك الإجماع دليل آخر، كما يقال: قد دَلَّ علىٰ ذلك الكتاب والسنة والإجماع، وكل من هذه الأصول يدل علىٰ الحق مع تلازمها؛

فإن ما دَلَّ عليه الإجماع فقد دَلَّ عليه الكتاب والسُّـنَّة، وما دَلَّ عليه القرآن فعن الرسول أخذ، فالكتاب والسُّـنَّة كلاهما مأخوذ عنه، ولا يوجد مسألة يتفق الإجماع عليها إلا وفيها نص " (١).

وإن إنكار السُّـنَّة سيسوق لا محالة إلىٰ إنكار الإجماع، ويبقىٰ النص القرآني بعدئذ مفتوحـًا للفهوم الشاذة، والآراء الباطلة، والأفكار الـمنحرفة ليتمَّ التلاعب به، وتحريف كَـلِـمِهِ عن مواضعه، وجعله مَبْتُوتَ الصلة عن ضوابط الفهم الصحيح التي سار عليها سلفنا الصالحون، وأئمتنا الـمرضيون.

وإذ قد ثبت عذاب القبر بنص الكتاب ومتواتر السُّـنَّة؛ فالإجماع فيه حينئذ قطعي، ولو سلمنا جدلاً باحتمال معاني الآيات الواردة، وعدم تواتر الأحاديث فيه؛ فالإجماع فيه كافٍ لقوة حجيته، وعصمته عن الخطأ، وعدم احتماله لخطأ الفهم، وضلال التأويل.

وكون الصحابة مجمعين علىٰ عذاب القبر ونعيمه، ثم تابعوهم، ثم تابعو تابعيهم، ثم مَنْ جاء بعدهم من أئمة الدين، وفقهاء الأمة، وعلماء الـمسلمين؛ فما هي نتيجة هذا الإجماع؟ ما الـمطلوب من معرفته بعد ثبوته؟ أَيُصَدَّقُ أم يُكَذَّبُ؟ أيُؤمَنُ بـما دَلَّ عليه أم يُكفَرُ به؟ أيكون مَنْ خالف إجماعهم الثابت هذا مهتديـًا وهم علىٰ ضلال؟ أعَـرَفَ الحق وجهلوه؟ مَنِ العاقل الذي سَيَدَّعِي هذا؟ وأيُّ غرورٍ وكِـبْـرٍ يَتَلَبَّسُ به الـمنكرون لإجماع السلف حول عذاب القبر ونعيمه؟ ألا خاب الأدعياء الجهلاء وخسروا !!

(١) [مجموع الفتاوىٰ (١٩/ ١٩٤ – ١٩٥) – مصدر سابق].

وقد نقل غير واحد من العلماء الإجماع على عذاب القبر، فمنهم:

١) الإمام أبو محمد حرب بن إسماعيل الكِرْماني رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٢٨٠هـ) في كتابه (**إجماع السلف في الاعتقاد**) [١] وقد صرح في مقدمته أَنَّ ما سيذكره هو مذهب أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلىٰ زمنه، وأدرك علىٰ هذا الاعتقاد علماء المسلمين في كل من العراق والحجاز والشام وغيرها، قال: " وعذاب القبر حق، يُسأل العبد عن ربه، وعن نبيه، وعن دينه، ويرىٰ مقعده من الجنة أو النار " أهـ.

٢) الإمام أبو الحسن الأشعري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٣٢٤هـ) في كتابه (**رسالة إلىٰ أهل الثغر**)[٢] في ذكر ما أجمع عليه السلف من الأصول عند الإجماع التاسع والثلاثين، قال: " وأجمعوا علىٰ أن عذاب القبر حق، وأن الناس يفتنون في قبورهم بعد أن يحيون فيها ويُسْأَلُون، فَيُثَبِّتُ الله من أحبَّ تثبيته " اللهم اجعلنا منهم يا كريم.

٣) الإمام أبو محمد ابن قتيبة الدِّيْنَوَرِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٢٧٦هـ) في كتابه (**تأويل مختلف الحديث**) [٣] حيث قال: " أصحاب الحديث كلهم مجمعون علىٰ أَنَّ ما شاء الله كان وما لم يشأ لا يكون... وعلىٰ الإيمان بعذاب القبر، لا يختلفون في هذه الأصول، ومَنْ فارقهم في شيء منها نابَذُوه وباغَضُوه، وبَدَّعُوه وهَجَرُوه ".

---

(١) [(ص ٤٩) ت – أسعد بن فتحي الزعتري – ط / دار الإمام أحمد بمصر]

(٢) [(ص ١٥٩) ت – عبد الله شاكر الجنيدي – ط / الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بالسعودية]

(٣) [(ص ٦٤) ت – محمد محيي الدين الأصفر – ط / المكتب الإسلامي بلبنان ومؤسسة الإشراق بقطر]

٤) شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٧٢٨هـ) في (**مجموع الفتاوىٰ**) (١) قائلاً:

"العذاب والنعيم علىٰ النفس والبدن جميعـًا باتفاق أهل السنة والجماعة، تُنعَّم النفس وتُعذَّب منفردة عن البدن، وتُعذَّب متصلة بالبدن والبدن متصل بـها، فيكون النعيم والعذاب عليهما في هذه الحال مجتمعتين، كما يكون للروح منفردة عن البدن ".

٥) الإمام الأستاذ عبد القاهر بن طاهر البغدادي الأسفراييني الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٤٢٩هـ) في كتابه (**الفَرْق بين الفِرَق**) (٢) وهو بصدد ذكر الأصول التي اجتمع عليها أهل السُّـنَّة واتفقوا عليها، وضلَّلوا من خالفهم فيها، قال: " وقالوا بإثبات السؤال في القبر، وبعذاب القبر لأهل العذاب، وقطعوا بأَنَّ الـمنكرين لعذاب القبر يُعذَّبُونَ في القبر ".

٦) الإمام الحافظ أبو الحسن ابن القطان الفاسي الـمالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٦٢٨هـ) في كتابه (**الإقناع في مسائل الإجماع**) (٣)حيث قال: " وأجمع أهل الإسلام من أهل السُّـنَّة علىٰ أَنَّ عذاب القبر حق، وعلىٰ أَنَّ منكراً ونكيراً مَلَـكَي القبر حق، وعلىٰ أَنَّ الناس يفتنون في قبورهم بعد ما يحيون فيها، فيقال له: مَنْ ربك؟ وما دينك؟ ومَنْ نبيك؟ فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ".

---

(١) [(٤/ ٢٨٢) – مصدر سابق]

(٢) [(ص ٣٨٠) – ت مـحمد فتحي النادي – ط / دار السلام بـمصر]

(٣) [(١/ ٥٠ – ٥١) – ت حسن فوزي الصعيدي – ط / الفاروق الحديثة بـمصر]

٧) القاضي محمد ثناء الله الباني بتي المظهري الهندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت١٢٢٥هـ) في تفسيره المشهور باسمه **(التفسير المظهري)** (١) قال: " وقد دلت من الأحاديث ما لا يحصىٰ علىٰ عذاب القبر، وانعقد عليه إجماع السلف ".

وللعلماء في نقل الإجماع علىٰ عذاب القبر عشرات النقول، واستقصاؤها يفضي إلىٰ الطول، وفي هذا القدر كفاية، إذ القليل يدل علىٰ الكثير، والعبرة حاصلة، والذكرىٰ قائمة، والحجة واضحة، وقد قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت٧٩٥هـ): " فإن هذه الأمة قد أجارها الله أن يظهر أهل باطلها علىٰ أهل حقها، فما ظهر العمل به في القرون الثلاثة المفضلة فهو الحق، وما عداه فهو باطل " (٢)

والإنسان إذا كان مسترشداً باحثاً عن الحق، وتجرد من هواه، وأعمل عقله، وأصغىٰ بقلبه وسمعه، وأنصف العلم؛ أذعن وبادر إلىٰ الإيمان والاتباع عند ظهور الأدلة له، واستقبل الحق بنفس راضية، وانتظم في سلك المهتدين القائلين: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ (البقرة ٢٨٥)، والحمد لله أولاً وآخراً.

اللهم ربنا أعذنا من عذاب في النار، وعذاب في القبر...

اللهم ربنا أصلح أحوالنا، واختم بالصالحات أعمالنا، وأحسن بين يديك مآلنا...

اللهم أنت الملجأ والصاحب والولي...

وأنت المعين والمغيث والمعيذ...

---

(١) [(١٠/ ٧٧) ت – غلام نبي التونسي – ط / مكتبة الرشدية بالباكستان]

(٢) [جامع العلوم والحكم (ص ٢٦٤) ت – د. ماهر ياسين الفحل – ط / دار ابن كثير بلبنان]

يا حي يا قيوم برحمتك نستغيث، أصلح لنا شؤوننا كلها، ولا تكلنا إلىٰ أنفسنا طرفة عين...

وبك يا ربنا التوفيق، وأنت الـمستعان، وعليك التكلان...

ربنا ظلمنا أنفسنا، وإن لـم تغفر لنا وترحـمنا لـنكونـنَّ من الخاسرين، وإنا لنعوذ بوجهك العظيم ذي الجلال والإكرام أن نكون من الخاسرين.

اللهم ربنا:

آنِـسْ هُنَالِـكَ يَـا رَحْمَــنُ وَحْشـتَنَا	وَالطُــفْ بِنَــا وَتَرَفَّــقْ عِنْــدَ ذَاكَ بِنَــا
نَحْــنُ العُصَـاةُ وَأَنــتَ اللهُ مَلْجَؤُنَــا	وَأَنــتَ مَقْصَــدُنَا الأَسْــنَىٰ وَمَطْلَبُنَــا
فَكُــنْ لَنَــا عِنْــدَ بَأْسِــهَا وَشِــدَّتِهَا	أَوْلَـىٰ فَمَـنْ ذَا الـذِي بِهَـا يَكُـونُ لَنَـا

وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا مـحمد، وعلىٰ آله وأصحابه، ومَنْ تبعهم بإحسان، وسار علىٰ نـهجهم في كل زمان ومكان...

والحمد لله رب العالـمين.

وكتبه الفقير إلى الله

أبو إسحاق

أسامة بن محمد بن قاسم الكلدي اليماني

غفر الله له ولوالديه ولجميع الـمسلمين

الثلاثاء ٧ ربيع الثاني ١٤٤٤هـ

الـموافق ١ / ١١ / ٢٠٢٢م




محتويات الكتاب

احتوى الكتاب على :

- (٩٦) آية قرآنية.
- (٣٧) حديثًا صحيحًا.
- (١٥٣) نقلاً واقتباسًا بشكل مباشر، وما كان غير مباشر فكثير.
- (٦) قواعد من قواعد العلم والمنطق.
- (١١) استشهاداً شعريًا.
- (١٢٩) مصدراً ذكرت في مواضعها، وغيرها مما لم يُذكر.



الفهرس التفصيلي

